بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النازعات من الآية (١) إلى الآية (١٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فأعقب الله -تبارك وتعالى- بعد أن ذكر ما للمكذبين الكافرين من العذاب- بذكر نعيم أهل الجنة كما هي عادة القرآن؛ ليجمع العبد بين الخوف والرجاء، فقال: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا} [سورة النبأ:٣١] الذين اتقوا الله -عز وجل- بفعل أوامره واجتناب نواهيه لهم مفاز، فوز وظفر عظيم بتحصيل المطلوب، والنجاة من المرغوب، فأدخلهم الله -عز وجل- الجنة، وما فيها من النعيم المقيم، والحور العين، والولدان، وأعتقهم من النار، ثم ذكر بعض ما في هذا النعيم قال: {حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا} [سورة النبأ:٣٢]، فلهم بساتين محاطة، فيها من ألوان الثمار والأشجار ما لا يُقادَر قدره، وفيها من الأعناب وغير الأعناب مما تلذ له الأنفس، ويكون بهجة للناظرين، ومتعة للنفوس، قال: {وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا} [سورة النبأ:٣٣] مع هذه المحالّ الواسعة الباردة الجميلة ذات الثمار والأشجار الأنيقة لهم أيضاً أجمل النساء، وهن الكواعب اللاتي قد امتلأن شباباً فلا يتطرق إليهن أدنى ترهل، قد صرن بهذه المثابة تفلّكتْ ثُدِيُّهن، وذلك لكمال شبابهن ونضارتهن، وهن في سن متقاربة، {أَتْرَابًا}، أو في سن متحدة، وهي اكتمال سن الشباب، قال: {وَكَأْسًا دِهَاقًا} [سورة النبأ:٣٤]، فهم مع هذه الثمار والأشجار والبساتين وهؤلاء النساء الحسان كذلك أيضاً يشربون من كأس مَلأى مُتْرعة متتابعة، يشربون خمرة صافية، لا أذى فيها ولا كدر، وليس فيها ما يذهب العقول ويستنزفها، ومع ذلك فلا يطرق مسامعهم ما يكدر نفوسهم، فالجنة ليس فيها لغو حتى تلك المجالس التي يشربون فيها هذه الكأس، لا يحصل معها تخليط ولا هذيان، ولا يسمعون سباً ولا فحشاً، كما لا يسمعون أيضاً تكذيباً؛ لأن الجنة أصلاً ليس فيها كذب.

{جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا} [سورة النبأ:٣٦]، هذا كله مما وصفه الله -عز وجل- هو جزاء من الله على أعمالهم، وأعطاهم فوق أعمالهم، حيث إن الله -تبارك وتعالى- أعطاهم عطاءً جزلاً كثيراً، هذا الرب الذي من معاني ربوبيته العطاء والجزاء والثواب، هو رب السماوات والأرض، الذي بيده كل شيء، فخزائن السماوات والأرض بيده، ويدخل في ذلك الجنة والنار، {وَمَا بَيْنَهُمَا} [سورة النبأ:٣٧] من الهواء، وسائر المخلوقات التي تكون بين السماء والأرض كالسحاب، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله -عز وجل-، هو الرحمن، فإن ذلك صادر عن رحمته، ورحمته وسعت كل شيء، فكما أنه استوى على العرش الذي هو أوسع المخلوقات كذلك أيضاً اتصف بصفة الرحمة، {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا} [سورة الفرقان:٥٩]، الرحمة التي لا يخرج عنها مخلوق، {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} [سورة الأعراف:١٥٦]، فالجنة وما فيها من النعيم كل ذلك من آثار رحمته، وهداية هؤلاء ابتداءً وما وفقهم إليه كل ذلك من آثار رحمته، بل إن وجود النار وتعذيب أهل النار بالنار كل ذلك يتصل برحمته، وذلك أنه لا يتبين حقيقة النعيم إلا بضده، ثم تأمل ما ذكره الله -عز وجل- في سورة الرحمن، فإن الله لما ذكر أنواع النعيم الذي يكون لأهل الجنة كان

يعقب ذلك بقوله: {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [سورة الرحمن] يعني: النعم، ولما ذكر طرفاً من العذاب عقبه بمثل ذلك، والقرآن لا يوجد فيه تكرار محض، وكل جملة من هذه الجمل في سورة الرحمن، {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} فهي متصلة بالذي قبلها مباشرة، {يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ * فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [سورة الرحمن:٤٤-٤٥]، وبهذا يتميز نعيم أهل الجنة ويظهر، وبضدها تتميز الأشياء، هذا الرب العظيم الأعظم {لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا} [سورة النبأ:٣٧] لا يجترئ أحد على مخاطبته بأي لون من المخاطبة، سواءً كان ذلك بالشفاعة، والتقدم بها بين يديه إلا بإذنه -تبارك وتعالى-، أو كان بغيرها، وهذا يدل على كمال ملكه، وكمال عظمته، فإن أهل الدنيا يُجترَأ عليهم، ويُتقدم بالشفاعة بين يديهم من غير استئذان لهم، وهكذا يخاطبون من غير استئذان، أما الله -تبارك وتعالى- فكما قال: {يَوْمَ يَأْتِ} يعني: يوم القيامة، {لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} [سورة هود:١٠٥]، ولذلك ذلك اليوم هو اليوم الحقيقي وما بعده كأنه أوهام، ولهذا قيل له: {مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [سورة الفاتحة:٤] مع أنه مالك للدنيا والآخرة، لكن ذلك اليوم الحقيقي الذي لا يدعي فيه أحد شيئاً، {لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [سورة غافر:١٦]، فهنا قال: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ} [سورة النبأ:٣٨] في ذلك اليوم يقوم الروح جبريل -صلى الله عليه وسلم-، كما يقوم الملائكة هؤلاء العظام {صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ} من خوف الله -عز وجل- وعظمته، فالله -تبارك وتعالى- يغضب في ذلك اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، فيكون الجميع في غاية الوَجَل، {إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ} أن يتكلم، {وَقَالَ صَوَابًا}، في هذا الكلام، فليس هناك مجال لمُبطِل أن يتفوه بباطله، {ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ} [سورة النبأ:٣٩]، ذلك اليوم العظيم الذي تتجلى فيه الحقائق، ويلقى كل أحد جزاءه، هو اليوم الحق، الثابت، الواقع لا محالة، وما عداه فكأنما هو أحلام وأوهام، {فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا} [سورة النبأ:٣٩]، هذا اليوم الذي وصف بهذه الأوصاف قد عرفتموه بصفته التي لا يلتبس بها، هو يوم لابد من حصوله ووقوعه بما فيه من الأهوال والأوجال، فليختر المرء لنفسه، {فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا} مرجعاً بسبيل يسلكها توصله إلى المعبود -جل جلاله-، وذلك لا يتأتى إلا باتباع نبيه -صلى الله عليه وسلم-، وهذا الاتباع لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- في السبيل يمكن أن يكون بالتميّز بشيء من الأعمال الصالحة التي يُفتح على العبد بها، فهذا قد يكون طريقه إلى الله -تبارك وتعالى- بالذكر والقراءة والإكثار من ذلك، وهذا بالصلاة، وهذا بالصدقة، وهذا بالقيام على الضعفاء والمساكين، والأرملة، واليتيم، وما إلى ذلك، فهذا يعيش مع القرآن، وهذا يعيش مع الصلاة، وهذا يعيش مع الصدقة، فيستغرق أنفاسه في ذلك، المهم أن يبحث له عن مزرعة لآخرته، فلا يبقى بطّالاً، والآخرة دار لا تصلح للمفاليس، كل إنسان يبحث عن مزرعة، يبحث عن شيء، يبحث عن عمل، يبحث عما أعطاه الله -عز وجل- من المواهب والقُدَر والإمكانات، فيستغل ذلك فيما يجد نفسه فيه، ولا يكون شغله بما لا يعنيه من القيل والقال، والوقيعة في أعراض الناس، بئس الزاد إلى المعاد أعراض العباد، من الناس من ليس له هم ولا شغل إلا هذا -نسأل الله العافية-، والله يقول: {فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا}.

{إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا} [سورة النبأ:٤٠]، كل ما هو آتٍ فهو قريب، والقيامة قريبة، والأيام تنقضي سراعاً، وهذه الدنيا سماها الله -عز وجل- بالعاجلة، {مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ} [سورة الإسراء:١٨]، إلى أن قال الله: {وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ

كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا} [سورة الإسراء:١٩]، فالأولى وهي الدنيا سماها بالعاجلة، {مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ} فهي سريعة تنقضي، وقيل لها دنيا قيل: لدنو مرتبتها وانحطاطها وسفولها، فعلى أي شيء يكون التعلق بها؟

عند ذلك اليوم {يَنظُرُ الْمَرْءُ} [سورة النبأ:٤٠] كل أحد ينظر فيعرف موطئ قدمه وحقيقة ما كان عليه، {يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا}، عندها {يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} [سورة القيامة:١٣]، تعرض عليه جميع الأعمال، فينظر في هذه الصحف وما مُلئت به، فالمبطل والكافر يتحسر ويندم حيث لا ينفعه الندم، ويقول: {يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا}، حينما يرى البهائم يقتص بعضها من بعض ثم يقال لها: كوني تراباً، فتتحول إلى تراب، يتمنى لو أنه صار بهذه المثابة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمستمعين ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ}

[سورة النازعات:١-١٤].

هذه السورة سورة النازعات هي من السور المكية، وهذه السورة أيضاً تسمى بالطامة، وبالساهرة، ولكن الاسم المشهور هو النازعات، ويقال أيضاً: والنازعات.

وموضوع هذه السورة: هي تتحدث أيضاً عن البعث والنشور، وعن قدرة الله -عز وجل- على ذلك، وعن تكذيب هؤلاء الكافرين بهذه العقيدة، وما ذكره الله -عز وجل- فيها من خبر موسى -صلى الله عليه وسلم-: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} [سورة النازعات:١٧]، فإن ذلك -والله أعلم- من أجل أن هؤلاء الذين كذبوا بالبعث من الذين بُعث فيهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، متوعَّدون ببأس الله وبطشه، وعقوبته ونكاله، كما فعل بفرعون حيث أخذه الله نكال الآخرة والأولى، فموضوع السورة هو البعث والنشور.

قال ابن مسعود، وابن عباس، ومسروق، وسعيد بن جبير، وأبو صالح، وأبو الضحى، والسُّدي: {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا} الملائكة، يعنون حين تنزع أرواح بني آدم، فمنهم من تأخذ روحه بعُسر فَتُغرِق في نزعها، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حَلَّته من نشاط، وهو قوله: {وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا} قاله ابن عباس.

قوله: {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}، ما نقله هنا عن هؤلاء الصحابة -رضي الله عنهم- والتابعين من أن المراد بذلك الملائكة هذا هو قول الجمهور، لكن بعضهم يورده مطلقاً، يقول: الملائكة تنزع الأرواح، وبعضهم يقيده في الأول {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا} يقول: تنزع أرواح الكفار، يقيد ذلك بالكفار، وفي الثاني {وَالنَّاشِطَاتِ} يقيده بالمؤمنين كما سيأتي، وذلك أن النزع كما يقول أهل اللغة -وذكره الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: هو جذب

الشيء بشدة، نزعه من يده: أخذه وجذبه جذباً قوياً، هذا هو حقيقة النزع، {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}، ومن ثَمّ قال من قال: إن المراد الملائكة تنزع أرواح الكافرين؛ لأنها تتفرق في أجسادهم، فتنزعها الملائكة نزعاً كما يُنزع السَّفُود -كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- من الصوف المبلول، تُنزع من أقاصي الجسد، ولا يبعد أن يكون قول من قال: إنها الملائكة بإطلاق أنهم يقصدون في الأول يعني تنزع أرواح الكافرين، وفي الثاني تَنشِط أرواح المؤمنين، من أجل أن لا يكون هناك تكرار، لا يكون الثاني هو عين الأول، وذلك أن النشط كما سيأتي أخف من النزع، وهؤلاء أهل لغة ويميزون بين هذه المعاني، فقالوا: تنزع أرواح الكافرين وتجذبها بقوة جذباً شديداً، كما يشد الرامي بالقوس السهم إلى آخر مداه، كيف يكون القوس؟، يجذبه إلى آخر المدى إذا أراد أن يرمي، {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا} تجذبها جذباً قوياً من أقاصي الجسد، وهذا قول الجمهور، وبعضهم يقول كالسدي: إنها النفوس، النازعات هي النفوس حين تغرق في الصدور، وبهذا الاعتبار يكون النازعات من قبيل اللازم وليس المتعدي، يعني إذا قلنا: الملائكة تنزع الأرواح فهذا متعدٍّ، أما إذا قيل: هي النفوس تغرق في الأجساد فيكون من قبيل اللازم، الفعل بمعنى الفعل اللازم، بمعناه وإن لم يكن لفظ النازعات فعلاً، هذا قول السدي وفيه بُعد، وهو خلاف قول عامة أهل العلم على تفرق أقوالهم.

ومنهم من يقول كمجاهد: هو الموت ينزع النفوس، {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}، الموت ينزع النفوس هذا يمكن أن يُربط بالمعنى الأول بوجه من الوجوه، باعتبار أن الملائكة تستخرج النفوس من الأجسام، تنزعها نزعاً قوياً عند الموت، فيكون عبّر بالموت بهذا الاعتبار، لكن الموت أن يأتي الملك وينتزع الروح، {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ} [سورة السجدة:١١]، ولي الموت بنفسه هو الذي يخرج الروح، {تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ} [سورة الأنعام:٦١]، أعوان ملك الموت، على أحد القولين، أو أن المقصود بالمجموع واحد وهو ملك الموت، والأقرب: أنه ملك موكل بذلك وله أعوان.

وبعضهم كقتادة والحسن يقول: {وَالنَّازِعَاتِ} هي النجوم، تنزع من ناحية إلى ناحية، من المشرق إلى المغرب، {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}، فيكون معنى ذلك حينما تتهيأ للمغيب فإن ذلك يكون، تنزع من أفق إلى أفق، فغرقا يعني: غروب هذه النجوم، فهي تغرب وتغيب وتطلع من أفق لآخر، وهذا قال به جمع من أصحاب المعاني كأبي عبيدة معمر بن المثنى في كتابه مجاز القرآن، وكذلك قال به الأخفش، وغير هؤلاء.

وبعضهم يقول كعطاء وعكرمة: إن النازعات هي القِسيّ، ويقال: القَسي بلغة أهل مصر قديماً قَسي، والمشهور عند المحدثين القِسي، هي القِسي حينما تنزع بالسهام، فهو الرامي يبلغ بها إلى المنتهى إذا أراد الرمي، {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}، باعتبار أنها تنزع بالسهام، القسي تنزع بالسهام، فنسب ذلك إليها، قيل: والنازعات، مع أن بعض أهل العلم يقول: هنا لابد من تقدير إضافة إليها، يعني: ذوات النزع، يعني ينزع بها، لكن إذا قيل: تنزع بالقسي، يكون ذلك من صفتها، ولا يحتاج إلى تقدير.

وبعضهم يقول: المراد بالنازعات الغزاة والرماة، أقسم الله بهم، ((ألا إن القوة الرمي))[1]، {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ} [سورة الأنفال:٦٠]، {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}، عند الرمي والشد للقوس والوتر.

---

١ - رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، وذم من علمه ثم نسيه، برقم (١٩١٧).

وهذه أقاويل، والمشهور أن الأقسام هذه في هذه المواضع الخمسة أنها جميعاً في الملائكة، هذا قول الجمهور من السلف فمن بعدهم، وهو قول المحققين، {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}، وهنا حذف المفعول في جميع هذه المواضع، {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}، أنها تنزع ما ذكر، {وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا}، بماذا؟، وهكذا {وَالسَّابِحَاتِ} و{فَالسَّابِقَاتِ} لم يُذكر مفعول.

ابن القيم -رحمه الله- يقول: العلة في ذلك هي أن المقصود هو هذا الفعل لا المفعول، فلم يذكر من أجل أن لا تتوجه الأذهان إلى المفعول فيظن أنه هو المقصود، وإنما المقصود هذا الفعل الذي هو النزع والنشط والسبح والسبق والتدبير، وما إلى ذلك مما يكون هو المراد بهذا الموضع، يعني: المقصود الأفعال وليس المفعول، فقال الله: {وَالنَّازِعَاتِ} ما قال: والنازعات لأرواح الكافرين، والناشطات لأرواح المؤمنين، وإنما اكتفى بالفعل.

وابن القيم -رحمه الله- رجح أن المقصود الملائكة، والقرينة على ذلك أن ما بعده في الآخر وهو قوله: {فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا} المقصود به الملائكة بالإجماع، قالوا: هذا كله جاء على نسق واحد، ثم جاء أيضاً بعضه بالعطف بالفاء مما يدل على أنه يرجع لما قبله، فكل ذلك واحد له أفعال وأوصاف متعددة، فيكون من قبيل عطف الأوصاف، والأوصاف تعطف تارة بإسقاط حرف العطف، وتارة بذكر حرف العطف، إلى الملكِ القَرْمِ وابنِ الهُمامِ، ولم يقل: والقرم، وإنما قال:

إلى الملكِ القَرْمِ وابنِ الهُمامِ *** وليثِ الكتيبةِ في المُزْدَحَم

أتى بالعطف وبدون العطف، مثل {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى} [سورة الأعلى:١-٢] بدون حرف عطف، {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى} [سورة الأعلى:٣-٤]، فتارة يُسقَط حرف العطف، وتارة يذكر، فيكون هذا من قبيل الأوصاف المتنوعة للملائكة، مع أن ابن القيم -رحمه الله- وجه الأقوال الأخرى توجيهاً حاصله: أن هؤلاء الذين فسروا كأنهم أرادوا المثال -التفسير بالمثال-، وهو توجيه لا بأس به حسن، مع أن المقصود الملائكة.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "قلت: النازعات اسم فاعل من نزع، ويقال: نزع كذا، إذا اجتذبه بقوة، ونزع عنه إذا خلاه وتركه بعد ملابسته له، ونزع إليه إذا ذهب إليه ومال إليه، وهذا إنما توصف به النفوس التي لها حركة إرادية للميل إلى الشيء، أو الميل عنه"[٢].

بدأ يمهد للمعنى الذي سيذكره في الجمع.

وقال -رحمه الله-: "وأحق ما صدق عليه الوصف الملائكة"[٣].

قوله: "أحق" يعني: ليس للحصر، أحق يعني: أولى به الملائكة، ولكن لا ينفي عما عداه، العبارة دقيقة.

وقال -رحمه الله-: "ولأن هذه القوة فيها أكمل، وموضع الآية فيها أعظم، فهي التي تُغرِق في النزع إذا طلبت ما تنزعه أو تنزع إليه، والنفس الإنسانية أيضاً لها هذه القوة، والنجوم أيضاً تنزع من أفق إلى أفق"[٤].

---

٢ - التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم (ص:١٣٤).

٣ - المرجع السابق.

٤ - المرجع السابق.

فقول السدي: النفس الإنسانية تنزع في الجسد تغرق فيه.

وقال -رحمه الله-: "فالنزع حركة شديدة، سواء كانت من ملك، أو نفس إنسانية، أو نجم، والنفوس تنزع إلى أوطانها، وإلى مألفها، وعند الموت تنزع إلى ربها، المنايا تنزع النفوس، والقِسِيّ تنزع بالسهام، والملائكة تنزع من مكان إلى مكان، وتنزع ما وُكلت بنزعه، والخيل تنزع في أعنّتها نزعاً تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها، فالصفة واقعة على كل من له هذه الحركة التي هي آية من آيات الرب تعالى، فإنه هو الذي خلقها وخلق محلها، وخلق القوة والنفس التي بها تتحرك، ومن ذكر صورة من هذه الصور فإنما أراد التمثيل"[٥].

يعني ما ألغى الأقوال الأخرى، قال: هذا كله يصدق عليه النزع، فكأن هؤلاء فسروا بالمثال، يعني جعله من قبيل اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد، فما احتاج إلى الترجيح بين هذه الأقوال، وإن كان يقول: إن الملائكة أحق بهذا الوصف وأولى به.

وابن جرير لما ذكر هذه الأقوال كعادته قال: الله لم يحدد واحداً منها، فيمكن أن يكون كذا، ويمكن أن يكون كذا، ويمكن أن يكون كذا، ويمكن أن يكون كذا، يعني كأنه يرى أن تحديد أحد هذه المعاني من قبيل التحكم بغير دليل، ما عندنا دليل على أن المراد كذا، فيقول: يجوز كذا، ويجوز كذا، وطريقة ابن القيم أدق، حيث وجهها هذا التوجيه، وجعل ذلك من قبيل التفسير بالمثال، وكلام ابن القيم لا تجدونه في شيء من كتب التفسير أبداً، حتى الكلام على النفوس، يعني الذي يذكره المفسرون عادة ويناقشونه حتى الذين يُضعفون ويردون قول السدي، ويذكرون وجوهاً في تضعيفه هم يتكلمون عن أن النفس تتفرق في الجسد، ويقولون: المعنى قاصر، غير متعدٍّ، وابن القيم ذكر شيئاً آخر، انتقال النفوس، حركة النفوس، انتقال النفوس إلى ربها، كل ذلك جعله أوصافاً للنفس، لم يجعل ذلك في وصف واحد كما يقول المفسرون عادة، وهذا كثير في كلام ابن القيم -رحمه الله.

قوله تعالى: {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}، الملائكة تنزع أرواح الكفار، وعلى كلام ابن القيم في الجمع بين هذه الأقوال أن ذلك يصدق على كل ما يمكن أن يتصف بذلك، وسيأتي لهذا نظائر كثيرة، {وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ} [سورة البلد:٣]، {وَالْفَجْرِ} [سورة الفجر:١]، {وَالْعَصْرِ} [سورة العصر:١]، فالحاصل أن هنا {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}، غرقاً هنا بعضهم يقول: مصدر، وابن القيم يقول: اسم مصدر، {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}، مصدر، أو اسم مصدر أقيم مقام المصدر، يعني إغراقاً، {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا} أي: إغراقاً، إغراقاً في النزع، إذا قلنا: الملائكة تنزع الأرواح من الأجساد، أو أرواح الكفار يكون إغراقاً في النزع، حيث تنزعها، تنزع الأرواح من أقاصي الأجساد، أو أنه حال يعني: {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا} أي: ذوات إغراق، معنى أَغْرَقَ في الشيء: أوغل فيه، وبلغ مداه وغايته ونهايته، وهذا الإغراق، تقول: أغرق في هذه المسألة، أغرق في هذه القضية، أغرق في هذا الموضوع، يعني بلغ مداه، بلغ المنتهى، ومن ثَمّ فسره من فسره بنزع القِسِيّ، باعتبار أن الرامي يشد الوتر ويجذب القوس إلى المنتهى، وهكذا {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا} يعني: الملائكة تنزع الأرواح من أقاصي الأجساد فتستوفيها، ولذلك إذا الإنسان بدأ بالموت تبدأ أطرافه السفلية تتلاشى منها الحياة شيئاً فشيئاً حتى تبلغ الروح التراقي –الحلقوم-، فيكون الجسد

---

٥ - المرجع السابق (ص:١٣٥).

انتهى، تتوقف وظائف الكبد والكلى، ثم تتوقف الرئتان، ثم بعد ذلك يبدأ يغرغر ويحشرج، ثم بعد ذلك يزيغ البصر لا يتحكم فيه صاحبه، فتخرج روحه، فهذا معنى تستخرج الروح من أقاصي الجسد، وهنا {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا} أي: إغراقاً في النزع، حيث تنزعها من أقاصي البدن، {وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا}.

وأما قوله تعالى: {وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا} فقال ابن مسعود: هي الملائكة.

ورُوي عن علي، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، وأبي صالح مثلُ ذلك.

{وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا} قال ابن عباس: يعني الملائكة تنزع الأرواح، يعني: تَنشِط النفوس، يعني: تخرجها من الأجساد، كما يُنشَط العقال الذي يربط بيد البعير، فإذا حُلّ نهض البعير، يقال: فلان كأنما نشِط من عقال، يعني: كأنما أُطلق وثاقه فقام ليس به بأس، فإذا حُل هذا القيد نشِط صاحبه، أو نشِط البعير، ويقال: نَشَطَ الرجلُ الدلوَ، يعني: أخرجها من البئر، والنشاط هو الجذب بسرعة.

فالنازعات الملائكة، والناشطات أيضاً الملائكة تنزع الأراوح، تجذب الأرواح من الأجساد، والفرق بين الأول والثاني: أن النزع جذب بقوة وشدة، والنشط دونه كما يقول الواحدي في الفرق بينهما، فنزع أرواح الكفار يكون بشدة وعنف وقسوة، وأما أهل الإيمان فإن ذلك يكون برفق، وسهولة، ولين، إذاً الله أقسم بالنازعات وبالناشطات، فالملائكة تنزع الأرواح بشدة تناسب الكفار، وبرفق ولين يناسب أهل الإيمان، والذين يقولون: الملائكة تَنشِط النفوس تخرجها من الأجساد، كما يُنشَط العقال من يد البعير إذا حُلّ عنه، ونَشَطَ الرجلُ الدلوَ من البئر، يعني: أخرجها، هذا الجذب هذا معنى النشط.

بعضهم كمجاهد يقول: هو الموت يَنشِط نفس الإنسان، {وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا}، الموت، ووجهتُ لكم هذا من قبل في النازعات، باعتبار أننا إذا قلنا: الناشطات هي الملائكة تستخرج الأرواح، فإذا استخرجت الأرواح ما الذي يحصل نتيجة ذلك؟، هو الموت، فالموت ليس هو الذي يستخرجها، إنما الذي يستخرجها الملَك، فعبارة مجاهد لا تخرج عن هذا القول في مؤداها وحقيقتها، وإن كان اللفظ يختلف، فمجاهد -رحمه الله- لا يقول: إن الموت هو الذي يخرج الأرواح، وإنما الذي يخرجها الملَك، كما قال الله -عز وجل.

السُّدي جرى على قوله السابق في النازعات، فقال: {وَالنَّاشِطَاتِ} هي: النفوس، حيث تُنشَط من القدمين يعني: تبدأ الحياة تنسل من القدمين، لا أن الروح تخرج من القدمين، فروحه تخرج من فمه، لكنها تبدأ من القدمين، تبدأ الحياة تنسل، تخرج ابتداءً من القدمين إلى أعلى، وهكذا.

عكرمة وعطاء يقولون: هي الأوْهاق.

قتادة والحسن ومن أصحاب المعاني الأخفش يقولون: هي النجوم، النجوم حيث تنشِط من أفق إلى أفق، مثلما قالوا في النازعات، وهذا سيكون على هذا الاعتبار تكراراً.

أيضاً أبو عبيدة في مجاز القرآن، وقبله قتادة يقولون: هي الوحوش، حيث تنشِط من بلد إلى بلد، ومن ناحية إلى ناحية، تنتقل، ترتحل، تهاجر، وبعضهم يقول: هي أرواح المؤمنين حينما تُستخرج، فذلك إخراج الملائكة لها -كما سبق-، بخلاف الكافرين فإنها تُنزع فيناسبها ما سبق، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم- أن الناشطات هي الملائكة، وصفت بهذا في متعلق خاص وهو استخراجها لأرواح المؤمنين، حيث تستخرجها برفق، فتنسل الروح كما تنسل القطرة مِن فِي السِّقاء، بسهولة، ورفق، ولين.

وقوله تعالى: {فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا} رُوي عن عليٍّ، ومسروق، ومجاهد، وأبي صالح، والحسن البصري: يعني الملائكة.

هذا جميعاً في الملائكة، {وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا} يعني: الملائكة، باعتبار أنها تسبح في الفضاء، تحلق في الفضاء، لما أمرها الله -عز وجل- به، يعني: أنها تأتمر بأمره، فتسبح في هذا الفضاء الواسع الهائل امتثالاً لأمر الله -تبارك وتعالى-، فأقسم بالملائكة بهذه الصفة، وبعضهم يقول: الملائكة تسبح في الأبدان لإخراج الروح، كما يسبح الغواص في البحر لإخراج شيء منه، وهذا قد لا يكون، السبح هو من صفة الملائكة، لكن هل الملائكة تدخل في داخل البدن حتى تستخرج الروح؟ هذا أمر غيبي الله أعلم به، فلا حاجة لهذا الإيغال في معنى لم يرد عليه دليل، وإنما ذلك من صفة الملائكة، والذي يذكره عادةً أهل العلم يقولون: تسبح في الفضاء، تنزل وتصعد امتثالاً لأمر الله -تبارك وتعالى-؛ ولهذا قال مجاهد وأبو صالح: الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لأمر الله -عز وجل.

وبعضهم يقول: هي الخيل تسبح في الغزو، فأقسم الله -عز وجل- بها.

وبعضهم كقتادة والحسن يقولون: النجوم تسبح في أفلاكها، وبعضهم يقول: هي السفن، كل هذه أقوال على طريقة ابن القيم في توجيه النازعات، ولو أردنا أن نسير على هذا المهيع فنقول: إن ذلك يصدق على كل ما يتصف بهذه الصفة –السبح- من السفن، والخيل في الغزو، والأفلاك والنجوم هذه التي تسبح بهذا الفضاء، وأحق من وصف بذلك، وأحق من يصدق عليه هذا على أتم الوجوه وأكملها الملائكة -عليهم السلام-؛ ولهذا ابن جرير -رحمه الله- لما ذكر هذه المعاني فعل كما فعل في النازعات، ذكر المعاني وقال: الله لم يحدد معنى، يجوز أن يكون كذا، ويجوز أن يكون كذا، ويجوز أن يكون كذا، لكن الذي عليه الجمهور أنها الملائكة في خصوص نزع الأرواح، وإذا قلنا: إن التأسيس مقدم على التوكيد كما هي القاعدة يكون النزع أقوى، فيكون مناسباً لأرواح الكفار، والنشط أسهل فيكون ذلك في أرواح المؤمنين، {وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا}.

وقوله: {فَالسَّابِقَاتِ}، قال: **رُوي عن عليٍّ ومسروق ومجاهد وأبي صالح، والحسن البصري، يعني: الملائكة**، هذا أيضاً قول الجمهور، {فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا} بعضهم يقول كمسروق ومجاهد: الملائكة تسبق الشياطين بالوحي، وهذا رده المحققون من أهل العلم، قالوا: لا يمكن؛ لأن الشياطين كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ} [سورة الشعراء:٢١٢]، لا يمكن أن يسترقوا الوحي الذي ينزل على الرسل، لكن يمكن أن يسترقوا الخبر الذي يكون في أمور كائنة، أو نحو ذلك، يتخطفون السمع فينزلون به على الكاهن، لكن الوحي الذي ينزل على الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لا يتأتى للشياطين، فهذا المعنى بعيد.

وبعضهم كأبي رَوْق يقول: هي الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح، وهو مروي أيضاً -أو قريب منه- عن غيره كمجاهد، ومقاتل يقول: هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة، {فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا}، تسبق بأرواحهم، تسرع بها إلى الجنة، فلا يمهلونها بيد ملك الموت، فيأخذونها ويجعلونها في حنوط من حنوط الجنة، كما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم.

وبعضهم كالربيع يقول: هي نفوس أهل الإيمان تسبق إلى الملائكة شوقاً إلى الله -عز وجل-، يعني هي تريد أن تخرج بسرعة من أجل شوقها إلى ربها -تبارك وتعالى.

وبعضهم يقول: هو الموت يسبق الإنسان، وهذا مروي عن مجاهد.

وبعضهم يقول: هي النجوم يسبق بعضها بعضاً في السير، وهو مروي عن قتادة والحسن ومعمر بن راشد.

وبعضهم يقول: هي الخيل التي تسبق إلى الجهاد، كما يقوله عطاء.

وبعضهم يقول: هي الأرواح التي تسبق الأجساد إلى الجنة أو النار وتعذب قبل الأجساد.

وهذه أقاويل، وقيل غيرها أيضاً، والمشهور الذي عليه الجمهور أنها الملائكة، **{فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا}** تسبق في امتثال أمر الله -عز وجل- وتحقيق مراده، تمتثل مسرعة، مُسابِقة بلا تأخر ولا تباطؤ، ولا تردد، ولاحظْ هنا أن الله عطف بالواو، قال: **{وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا}**، ثم بالفاء **{فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا}**، فبعضهم يقول: وعطف السابقات بالفاء؛ لأنها مسبَّبة من التي قبلها، يعني: الملائكة تسبح فتسبق إلى أمر الله -تبارك وتعالى-، **{وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ}**، تسبح فتسبق فتكون الفاء كأنها للتعليل أو السببية، يعني كأن الذي بعدها مرتب على الذي قبلها، سبحت فسبقت، هكذا قال بعضهم، ولكن اعترض على هذا بالمدبرات، قالوا: هل المدبرات مرتب على ما قبله؟ هل السبق للتدبير؟ وبعضهم قال: نعم، سبقت امتثالاً لأمر الله -عز وجل-، سبحت فسبقت فدبّرت ما أُمرت به، ووُكل إليها تدبير.

وبصرف النظر عن العطف بالفاء فإن الجمهور على أن السابحات هي الملائكة، وأن السابقات أيضاً هي الملائكة، وكل ذلك في الملائكة، أما المدبرات فبالإجماع أنها الملائكة.

ويقول هؤلاء: إن السبق يكون من أجل التدبير، هذا للأرواح، وهذا للقطر، وهذا للوحي، وهذا لغير ذلك من الأعمال التي أناطهم الله -عز وجل- بها، وأناطها بهم.

وقوله تعالى: {فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا} قال علي، ومجاهد، وعطاء، وأبو صالح، والحسن، وقتادة...

إذا كنتم تريدون أن أُكمل شيئاً على الأقل أكمل الكلام على جواب القسم، أين جواب القسم؟.

يعني هذه الأقسام كما ترون، أو نكمل في المدبرات أمراً، ثم نتكلم على جواب القسم.

وقوله تعالى: {فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا} قال علي، ومجاهد، وعطاء، وأبو صالح، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي: هي الملائكة، زاد الحسن: تدبر الأمر من السماء إلى الأرض، يعني: بأمر ربها -عز وجل.

هذا بالإجماع، ونقل الإجماع جماعة مثل ابن القيم والسمعاني، يعني وبعضهم مثل ابن عطية يقول: لم أقف على خلاف فيه، يعني كأنه يقول: إجماع، أن المدبرات هم الملائكة، تدبر الأمر من السماء إلى الأرض، يعني: بأمر ربها -تبارك وتعالى-، تدبر ما أُمرت بتدبيره.

يبقى جواب القسم عن هذه المذكورات، الآن أقسم الله -عز وجل- بهذه جميعاً، بالنازعات، والناشطات، والسابحات، والسابقات، والمدبرات، خمسة أقسام، والقسم لا يكون إلا بمعظم، هذه القاعدة، فهذه الأقسام الخمسة أين جوابها؟ بعضهم يقول: الجواب محذوف، وتقديره: لتبعثنّ، والسورة تتحدث عن البعث، وهؤلاء يكذبون بالبعث، فجاء لهم بأشياء تتعلق بنزع الأرواح، وتدبير الأمور والمقادير، فأقسم بالنازعات التي تنزع أرواح الكافرين، والناشطات التي تَنشِط أرواح أهل الإيمان، والسابقات التي تبادر لأمر الله وتنفيذه،

والسابحات التي تسبح، والملائكة تسبح في الفضاء... إلى آخره، وأنهم سيبعثون، أن البعث أمر واقع لا محالة كما يقول الفراء: لمعرفة السامعين به، فهو أمر مدرك معلوم، والسياق يدل عليه، ويدل عليه أيضاً قرينة، وهي قوله: {أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ}، فالسياق كله في قضية البعث، وجدال هؤلاء فيه.

وبعضهم يقول: إن الجواب هو قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى} [سورة النازعات:٢٦] يعني: في يوم القيامة، وذكر موسى وفرعون، {لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى}، لكن هذا فيه بُعد، الفاصل طويل، والذهن لا يربط بهذه الطريقة، والقرآن أوضح الكلام وأبين الكلام، فيكون المقسم عليه حاضراً في أذهان السامعين.

وبعضهم يقول: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى} [سورة النازعات:١٥] هذا هو الجواب، {هَلْ أَتَاكَ} يعني: قد أتاك، باعتبار أن الاستفهام تقريري، قد أتاك حديث موسى، وهذا أيضاً لا يخلو من بعد.

وبعضهم يقول: الجواب: {يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ}، وهذا كذلك أيضاً لا يخلو من بعد.

وبعضهم يقول: يحتمل أن يكون هناك تقديم وتأخير، يعني كأنه قال: {فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ}، {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}، وهذا خلاف الأصل؛ لأن الأصل في الكلام الترتيب، ومهما أمكن حمل الكلام على الترتيب فلا يلجأ إلى دعوى التقديم والتأخير، وهنا يمكن حمله.

ابن القيم -رحمه الله- في كتابه التبيان في أقسام القرآن، في عدد من المواضع، يقول: لا يوجد جواب أصلاً، وإنما المقصود التنويه بهذه الأمور ولفت النظر إليها، ويكفي هذا عن الجواب؛ لأنه يشعر به.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "وجواب القسم محذوف يدل عليه السياق وهو البعث المستلزم لصدق الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وثبوت القرآن، أو أنه من القسم الذي أريد به التنبيه على الدلالة"[٦].

يعني ما دل عليه المذكور.

وقال "رحمه الله-: "والعبرة بالمقسم به دون أن يراد به مقسماً عليه بعينه، وهذا القسم يتضمن الجواب المقسم عليه وإن لم يذكر لفظاً، ولعل هذا مراد من قال: إنه محذوف للعلم به، لكن هذا الوجه ألطف مسلكاً"[٧].

يعني على الطريقة التي يذكرها الآن ابن القيم بكلامه الأخير، أنه ما يحتاج إلى تقدير، يعني: ما يحتاج أن يقال: الجواب محذوف مقدر بـــ لتبعثن، ابن القيم يقول: ما يحتاج، فإن ذلك يُستشف من هذه الأمور المقسم بها، فيصل المعنى إلى قلب السامع فيفهمه دون أن نقدّر.

وقال "رحمه الله-: " فإن المقسم به إذا كان دالا على المقسم عليه مستلزماً استغنى عن ذكره بذكره، وهذا غير كونه محذوفاً لدلالة ما بعده عليه، فتأمله.

ولعل هذا قول من قال: إنه إنما أقسم برب هذه الأشياء وحذف المضاف، فإن معناه صحيح لكن على غير الوجه الذي قدروه فإن إقسامه سبحانه بهذه الأشياء لظهور دلالتها على ربوبيته ووحدانيته وعلمه وقدرته وحكمته فالإقسام بها في الحقيقة إقسام بربوبيته وصفات كماله فتأمله"[٨].

---

٦ - التبيان في أقسام القرآن (ص:١٣٩).

٧ - المصدر السابق.

٨ - المصدر السابق.

يعني ابن القيم يقول: إن السامع حينما يسمع هذه الأقسام يصل إلى فهمه المراد من هذه الأمور التي ذكرها الله على سبيل التعيين والتخصيص، {وَالنَّازِعَاتِ} {وَالنَّاشِطَاتِ} إلى آخره، فيكون الكلام مشعراً بالمراد وهو قدرة الله -عز وجل-، وعظمته، قدرته على بعث الأجساد.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النازعات من الآية (٥) إلى الآية (٢١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فسورة النازعات -ويقال: الساهرة والطامة- تتحدث عن البعث والنشور في مجملها، وقد صدرها الله -عز وجل- بهذه الأقسام الخمسة التي تتصل بهذا الموضوع اتصالاً وثيقاً، فأقسم بالنازعات وهي الملائكة التي تنزع أرواح الكفار بشدة وغلظة، أو أنها أحق ما يصدق عليه هذا الوصف.

كما أقسم بعد ذلك بالناشطات وهي الملائكة التي تقبض أرواح المؤمنين فتستخرجها بلين وسهولة ورفق، ثم أقسم أيضاً بالسابحات وهي الملائكة التي تسبح في الفضاء محقِّقة ومنفذة ومنقادة ومستجيبة لما أمرها الله -عز وجل- به، ثم أقسم -تبارك وتعالى- بالسابقات وهي الملائكة تسبق إلى الوصول إلى ما أُمرت بفعله امتثالاً لأمر الله -جل جلاله.

ثم أقسم بالملائكة التي تدبر ما وكل الله -عز جل- إليها تدبيراً، فتقوم بذلك طواعية، منقادة طائعة بلا تباطؤ ولا تأخر، هذه خمسة أقسام كلها في الملائكة بوظائفها المتنوعة سواء قلنا ذلك على سبيل الحصر -يعني أن ذلك يراد به الملائكة فحسب- أو قلنا ذلك باعتبار أن الملائكة أحق ما يصدق عليه هذا الوصف، ويدخل في مجمله أمور أخرى لكنها دون ما ذُكر.

أقسم بهذه الأقسام الخمسة على البعث والنشور، وأنه أمر حاصل وواقع ومتحقق سواء قلنا: إن هذا الجواب -جواب القسم- مقدر، أو قلنا: إنه اكتفي بما ذكر من هذه الأقسام حيث إن ذلك يُشعر به ويدل عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمستمعين ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين.

{فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا} [سورة النازعات:٥] **قال علي ومجاهد وعطاء والحسن والربيع بن أنس والسدي: هي الملائكة، زاد الحسن: تدبر الأمر من السماء إلى الأرض يعني بأمر ربها -عز وجل-، ولم يختلفوا في هذا، ولم يقطع ابن جرير بالمراد في شيء من ذلك إلا أنه حكى في المدبرات أنها الملائكة ولا أثبتَ ولا نفى.**

هذه الزيادة من الأصل تركها المختصر وهي مهمة لابد من إضافتها.

وقوله تعالى: {يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ} [سورة النازعات:٦-٧] **قال ابن عباس: هما النفختان الأولى والثانية، وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغير واحد، وعن مجاهد: أما الأولى وهي**

قوله -جل وعلا-: "يوم ترجف الراجفة" فكقوله -جلت عظمته-: "يوم ترجف الأرض والجبال"، والثانية وهي الرادفة فهي كقوله: {وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً} [سورة الحاقة:١٤].

قوله -تبارك وتعالى-: {يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ} الرجفان يعني الاضطراب، يوم ترجف الراجفة المضطربة يعني الصيحة العظيمة التي تتردد أو فيها تردد واضطراب كالرعد، ترجف الراجفة، تتبعها الرادفة المقصود بها النفخة الأولى، والرادفة؛ لأنها أردفتها، في قوله -تبارك وتعالى-: {أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ} [سورة الأنفال:٩] مردفين يعني أن بعضهم يردف بعضاً، يعني يتبع بعضاً، فالألف يكون بعدهم مدد إلى ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف؛ ولهذا قال: {بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ} [سورة آل عمران:١٢٥]، بهذه القيود {يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا} على أحد القولين يعني: يأتيكم مدد الكفار الذين وعُدوا بهم، الكفار وُعدوا بمدد فخاف المسلمون فقال: {بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ} أيضاً يأتيكم مدد آخر من الملائكة ألف يتبعهم آلاف إلى ثلاثة إلى خمسة، هذا على أحد القولين المشهورين في الآية.

فهذه ردفت النفخة الأولى فقيل لها: الرادفة، هنا يقول ابن كثير -رحمه الله-: **قال ابن عباس: هما النفختان الأولى والثانية وهكذا قال مجاهد** إلى آخره، **وعن مجاهد: أما الأولى وهي قوله: {يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ} فكقوله: {يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ} [سورة المزمل:١٤]، والثانية هي الرادفة،** "وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة"، لكن هذا على خلاف قول عامة أهل العلم، بل إنه خلاف المتبادر، فالنفختان: الأولى هي الراجفة، والثانية هي الرادفة.

وقوله -تبارك وتعالى-: {يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ} هذا الظرف "يوم ترجف الراجفة" إما أنه متعلق بجواب القسم المقدر، باعتبار أنه مقدر يعني لتبعثن يوم ترجف الراجفة، فيكون منصوباً بجواب القسم المقدر، أو أن ذلك المتعلق فعل مقدر محذوف، أي واذكر يوم ترجف الراجفة، وهذا كثير قبل الظرف.

{إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ} [سورة آل عمران:١٢٤]، أي واذكر إذ تقول، {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ} [سورة آل عمران:١٢١]، واذكر إذ غدوت من أهلك تبوئ، فإما أن يربط بما قبله من مذكور، أو محذوف مقدر، أو يقال: إنه معمول لفعل مقدر محذوف، وهذا هو الغالب وهو أسهل، واذكر كذا.

{يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ} اذكر يوم ترجف الراجفة، يعني ذات الصوت الهائل العظيم الذي فيه اضطراب لا يُقادَر قدره في تردد صوت هائل لا يطيق الناس سماعه ولا يحتملونه، فهذه هي النفخة الأولى التي يموت فيها جميع الخلائق، ثم تكون الرادفة عند البعث قد ردفت التي قبلها.

وسميت بهذا -والله تعالى أعلم-، وهذا قول عامة أهل العلم وإن قال بعضهم خلاف ذلك، كقول ابن زيد: الراجفة هي الأرض، والرادفة هي الساعة، {يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ} الأرض تضطرب وتهتز، تتبعها الرادفة يعني تتبعها الساعة، تتبعها القيامة، تضطرب الأرض فتقوم القيامة، "إذا زلزلت الأرض زلزالها"، فجعل الرجفان للأرض، ويتبع ذلك قيام الساعة، وهكذا ما جاء عن مجاهد من أن الراجفة هي الزلزلة تتبعها الرادفة يعني الصيحة، ابن زيد قال: القيامة، وهذا قال: الصيحة، وهما بمعنى واحد، فإن القيامة تقوم بالصيحة، بالنفخ في الصور.

وبعضهم يقول: الراجفة اضطراب الأرض والرادفة الزلزلة، وكأن ذلك يرجع إلى معنى واحد في قول هذا القائل، يعني الراجفة ترجف الأرض تتبعها الرادفة يعني الزلزلة، والرجْف هو بمعنى الزلزلة والاضطراب.

والمشهور أن المقصود بالراجفة النفخة الأولى، والرادفة النفخة الثانية، في الأولى يموتون، وفي الثانية يبعثون.

وقوله تعالى: {قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ} [سورة النازعات:٨] قال ابن عباس: يعني خائفة، وكذا قال مجاهد وقتادة.

قوله تعالى: {قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ} يعني خائفة، وجَفَ قلبه بمعنى خاف واضطرب، فالقلوب الواجفة هي المضطربة القلقة الخائفة لما عاينت من أهوال القيامة، هذا قول الجمهور، والأقوال الأخرى التي قالها السلف هي في الواقع ترجع إلى هذا المعنى ولا تخالفه وإن اختلفت عباراتهم كقول السدي مثلاً: زائلة عن أماكنها، ما الذي أزالها عن أماكنها؟ شدة الخوف، فإن الله -عز وجل- قال عن المؤمنين في يوم الأحزاب: {وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ} على المعنيين اللذين ذكرناهما هناك، إما أن الرئة تنتفخ كما يقال: انتفخ سحره أي رئته من شدة الخوف، فالعرب تقول: إن الرئة تنتفخ من شدة الخوف ولا أعرف هل هي الرئة التي تنتفخ أو ما يسميه الأطباء اليوم القولون يضغط على الحاجز فيضغط على القلب؛ لذلك بعض الناس قد يتألم ويظن أن ذلك لوجع في قلبه والواقع أنه يعاني من القولون فيضغط على الحاجز، أنا لا أعرف هل العرب تقصد هذا المعنى أو لا؟، لكن العرب يقولون: إذا خاف الإنسان وتعاظم خوفه انتفخ سحره، يعني رئته، فيرتفع معها القلب إلى أعلى بحيث لا يكون القلب في حال طبيعية.

وبعضهم يقول: هذا كناية عن شدة الخوف، كأن القلوب أرادت أن تخرج ولم يمكنها ذلك فبقيت، بلغت الحناجر كأنها من شدة الخوف ستخرج من أماكنها، فالقلب من شدة الخوف يحصل له مثل هذا.

وهنا قال السدي: زائلة عن أماكنها، هذا يرجع إلى شدة الخوف، فهو لا ينافي ما سبق، وهكذا قول من قال كالمُؤرِّج: قلقة مستوفزة، يعني خائفة خوفا شديداً تترقب، وقول المبرد: يعني مضطربة، هذا كله يرجع إلى شيء واحد.

هذه القلوب في غاية الخوف والاضطراب والقلق الذي يكاد أن يقلبها، أو أن يزيلها من أماكنها.

{أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ} [سورة النازعات:٩]، أي أبصار أصحابها، وإنما أضيفت إليها للملابسة، فهي ذليلة حقيرة مما عاينت من الأهوال.

البصر في حال الشدة والخوف الشديد يكون في حال من الضعف بحيث لا يستطيع صاحبه أن يتحكم به، فيشخص البصر تارة فيوصف بذلك، فالأبصار شاخصة بمعنى أنها تزيغ وتميل من شدة الخوف، "وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر" هذا في يوم الأحزاب، الزيغ هو الميل، مالت بمعنى أن النظر لم يعد صاحبه يستطيع التحكم به، أي أن الإنسان يصوب نظره بطريقة غير إرادية إلى جهة ما، فهنا لم يعد صاحبه قادراً على تصويب النظر إلى حيث شاء.

وتوصف أيضاً بالذل والخشوع؛ لأن من معاني الخشوع الذل، الخشوع صفة مركبة من مجموع أوصاف منها الذل فتكون هذه الأبصار خاشعة، هنا قال: **أي أبصار أصحابها**، هم تشخص أبصارهم فتكون تلك النفوس -أولائك الناس- في حال من الذل بسبب ما عاينوا من الأهوال والأوجال؛ لأنه أضاف الأبصار هنا

إلى القلوب، والقلب له البصيرة وليس له البصر، البصر للعين وبصيرته لا توصف بالخشوع فقال: {أَبْصَارُهَا}، إذاً ليس المقصود بصر القلب هنا، وإنما المقصود أبصار أصحابها.

فلما كان الكلام على الخوف الشديد والذي موضعه القلب؛ لأن الخوف منشؤه ومنبعه وموضعه ومستقره ابتداء وانتهاءً القلب، فيظهر أثره على الجوارح مثل باقي الأوصاف الأخرى القلبية كالفرح واللذة والسرور والرجاء والمحبة كل ذلك موضعه القلب، فهو مستقر هذه الأمور، فهنا أبصارها يعني أبصار هؤلاء الذين عاينوا هذه الأهوال خاشعة في حال من الذل.

وقوله تعالى: {يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ} [سورة النازعات:١٠] يعني مشركي قريش ومن قال بقولهم في إنكار المعاد يستبعدون وقوع البعث بعد المصير إلى الحافرة وهي القبور قاله مجاهد، وبعد تمزق أجسادهم وتفتت عظامهم ونُخورها.

الحافرة يقول: **وهي القبور قاله مجاهد،** أصل الحافرة {أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ} أصل ذلك من قولهم: رجع فلان إلى حافرته، بمعنى رجع إلى حاله الأولى التي كان عليها، كما يقولون: عادت حليمة إلى عادتها القديمة، يعني عاد إلى ما كان عليه.

ويقال: غلب الطبع التطبع، فهنا {أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ} رجع فلان إلى حافرته يعني إلى حاله الأولى، ويمكن أن يقال هذا في الأمور الحسية، رجع في حافرته أي الموضع الذي جاء منه، فالحافرة عند العرب اسم لأول الشيء، وابتداء الأمر، هذا أصله إذاً {أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ} يكون بهذا الاعتبار، والقرآن جاء بلغة العرب، وهم يعبرون بهذا، كأنه يتبع حفر قدميه في الأرض، هذا الذي رجع من حيث أتى، فهنا جاءت لفظة الحفر من ابن جرير -رحمه الله-، ومن ثَمّ لا حاجة إلى القول بأنه القبر –الحفرة-، هذا الذي رجع من حيث جاء قيل: رجع في حافرته، رجع من حيث أتى كأنه يتبع حفر قدميه، الحافرة.

يعني نعود إلى ما كنا عليه، يعني {أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ} أحياء بعد موتنا وتفرق أبعاضنا وأجسامنا في التراب؟ هل نرجع من جديد إلى الحياة؟ هذا معناه، وهذا الذي قاله ابن جرير، وقال به كثير من أهل العلم من السلف ومن بعدهم.

وبعضهم نظر إلى لفظ الحفر فقال -كما جاء عن مجاهد-: نرجع يعني إلى القبور أحياء في قبورنا، وبعضهم يقول: {لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ} يعني الأرض، و قيل لها: حافرة؛ قيل: لأنها تُحفر بها قبورهم، سميت حافرة بهذا الاعتبار، يعني نرجع في قبورنا أحياء بعدما تفتتت وتفرقت أجزاؤنا في التراب، وفارقنا الحياة، ليس المقصود أنه يبقى حيًّا وهو في القبر، لا يقصدون ترجع إلينا الحياة وقد صرنا إلى تلك الحال في القبور، فهم أين هم حتى ترجع إليهم الحياة، فيقولون: هل ترجع لنا الحياة في قبورنا بعد أن صرنا رميما أو رماداً؟ هذا مقصود من قال: ترجع لنا في القبور، لا يقصدون حياة برزخية، وإنما يقصدون الحياة التي يحصل بها الجزاء والحساب، الحياة الأخروية يعني البعث، هذا مرادهم، وهذا يرجع للمعنى الأول، يعني قول مجاهد: ترجع لنا الحياة في القبور، بهذا الاعتبار، وهذا قال به آخرون من أصحاب المعاني، قال به الخليل بن أحمد، وقال به الفراء في معاني القرآن، كل هذا نظروا فيه باعتبار الحافرة، الحفر يعني الحفرة التي دُفِنّا بها،

القبور التي انْمَاعت أجسامنا وتحللت أبعاضنا وأجزاؤنا فيها فصرنا تراباً، هل ترجع لنا الحياة بعد هذه الحال فنقوم من قبورنا أحياء؟، إذاً يرجع إلى المعنى السابق.

لكن منهم من قال كابن زيد: الحافرة هي النار، {أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ} وهذا خلاف قول عامة أهل العلم، وفيه بُعد.

وابن جرير -رحمه الله- يقول: هؤلاء المكذبون بالبعث من مشركي قريش إذا قيل لهم: إنكم مبعوثون بعد الموت {يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ} إلى حالنا الأولى قبل الممات فراجعون أحياء قبل مماتنا، وقبل هلاكنا؟ هذا هو المعنى الظاهر -والله تعالى أعلم- وهو مروي عن ابن عباس وقتادة والسدي، ولا يخالفه من قال: القبور، فهذا كله بمعنى واحد.

إذاً {أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ} يعني نرجع أحياء كما كنا بعد أن صرنا إلى تلك الحال من الموت والفناء؟.

ولهذا قالوا {أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً} وقرئ ناخرة، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: أي بالية، قال ابن عباس: وهو العظم إذا بلي ودخلت الريح فيه.

هم يستبعدون البعث من جديد {أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً} قال هنا: **قرئ ناخرة** قراءة الجمهور ناخرة، والقراءة الأخرى أيضا متواترة سبعية لحمزة والكسائي، وأيضا لأبي بكر عن عاصم هاتان القراءتان الآن {أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً} وناخرة، وبعض أهل العلم يقول: هما بمعنى واحد، نخرة وناخرة يعني بالية، وبعضهم يفرق بينهما في المعنى فيقول: إن معنى نخرة يعني بالية أصابها البِلاء فتفتتت وتلاشت، هذا معنى نخرة عندهم.

والناخرة: قالوا هي المجوفة التي تنخر الرياح في جوفها إذا مرت بها، أنتم تعرفون عوامل التعرية كيف تؤثر في الصخور فإذا جاء الهواء صار لها أصوات وصفير، العظام بعد مدة طويلة إذا ألقيت في الفلاة مثلا صارت مُخرّقة.

فهنا يقولون: ناخرة يعني مجوفة تنخر فيها الرياح، نخرة في جوفها، وهذا هو الذي ذهب إليه كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-: نخرة بالية، ناخرة يعني قد نخرتها أو مجوفة تنخر الرياح في جوفها، وبعضهم يقول: إن الناخرة التي لم تُنخر بعد، ناخرة يعني سيكون لها ذلك، ستصير إلى ذلك، لم يحصل لها البِلاء بعد، ولكنها في الطريق، هذه الناخرة.

وأما النخرة فهي التي قد بليت، هذا قاله أبو عمرو بن العلاء، وبعض أهل العلم يقول: هما بمعنى واحد نخرة وناخرة.

وأما قولهم {تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ} [سورة النازعات:١٢] فقال محمد بن كعب: قالت قريش: لئن أحيانا الله بعد أن نموت لنخسرن.

قبل هذا قالوا: تلك إذاً كرة خاسرة يعني إذا رجعنا من جديد أحياء بعد أن نموت لنخسرن، هذا يقوله الكفار المكذبون بالبعث، يعني تلك الرجعة إن حصلت فالخسارة بها متحققة، يعني هي رجعة خاسرة، أي ذات خسران؛ لأن مصيرهم سيكون البوار والهلاك.

ولهذا يقول ابن جرير: خاسرة أي غابنة، وغابنة بمعنى خاسرة؛ لأن الخسران والغبن هو الذي يكون في البيع والتجارة، والله سمى المعاملة معه تجارة وبيعاً وشراء؛ ولهذا سمى يوم القيامة بيوم التغابن لما يحصل فيه من الغبن الشديد والتفاوت العظيم بين الناس، فهذا يأتي بأعماله، وهذا يأتي بأعماله، هذا قد استغرق الأنفاس والليالي والأيام حيث اشترى بذلك منزلاً في النار، ولم يكن الأمر على ذلك فحسب بل ورث منزل ذاك الذي في الجنة من النار، وهذا قد استغل الأوقات والأنفاس في مرضات الله -عز وجل-، وجاء بالأرباح والأعمال الطيبة الزاكية فأورثه ذلك دار النعيم المقيم، وليس ذلك فحسب بل إنه ورث منزل ذاك الذي في النار من الجنة.

هذا غبْن، هذا يرث منزله في النار وذاك يرث منزله في الجنة، هذا غبْن عظيم جداً، فهذا من معاني التغابن الواقع في ذلك اليوم، والمعنى أن هؤلاء الكفار يقولون: إنْ رُددنا بعد الموت لنخسرن بما يصيبنا مما يقوله محمد من الجزاء والجنة والنار والحساب... الخ، صفقتنا ستكون خاسرة، هذا هو المعنى المشهور الذي عليه أهل العلم.

وبعضهم فسر خاسرة يعني كاذبة، قال: إن ذلك قالوه إمعاناً في التكذيب "تلك إذاً كرة خاسرة" قالوا: كاذبة لا وقوع لها بحال من الأحوال، وهو منقول عن الحسن، وبعضهم يقول: "تلك إذاً كرة خاسرة" يعني على من كذب بها، وهذا يرجع إلى المعنى الأول الذي ذكرناه.

وهذا فيه زيادة بيان فقط، أنها ليست خاسرة على الجميع وإنما خاسرة على المكذبين، وهذا أمر بيّن لا خفاء فيه، هذه عبارة الربيع بن أنس، وعبارات السلف في هذا متقاربة.

يعني قول من قال: لئن رجعنا بعد الموت لنخسرن بالنار يرجع إلى المعنى الأول، وهذا منقول عن قتادة ومحمد بن كعب القرظي.

فإنما هي زجرة يعني الأمر يسير ما هي إلا زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة، وبعضهم يقول: فإنما هي زجرة واحدة هذا يرجع إلى الرادفة التي هي النفخة الثانية، بمجرد زجرة واحدة صيحة واحدة نفخة واحدة يرجع الناس إلى الحياة من جديد.

قال الله تعالى: {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ} [سورة النازعات:١٣-١٤] أي فإنما هو أمر من الله لا مثنوية فيه ولا تأكيد فإذا الناس قيام ينظرون، وهو أن يأمر الله تعالى إسرافيل فينفخ في الصور نفخة البعث فإذا الأولون والآخرون قيام بين يدي الرب -عز وجل- ينظرون كما قال تعالى: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً} [سورة الإسراء:٢٥]، وقال تعالى: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [سورة القمر:٥٠]، وقال تعالى: {وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ} [سورة النحل:٧٧].

هذه الآيات تفسر "فإنما هي زجرة واحدة".

القارئ: قوله تعالى: {فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ} قال ابن عباس: الساهرة الأرض كلها، وكذا قال سعيد بن جبير وقتادة وأبو صالح، وقال عكرمة والحسن والضحاك وابن زيد: الساهرة وجه الأرض، وقال مجاهد: كانوا بأسفلها فأُخرجوا إلى أعلاها، قال: والساهرة المكان المستوي.

هذا كله يرجع إلى معنى واحد {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ} يعني: إذا هم على وجه الأرض أحياء، وظهر الأرض تسميه العرب الساهرة، وسبب هذه التسمية بعض أهل العلم يقول: لأنه يكون عليها السهر والنوم، فعُبر بأحدهما، الساهرة يعني الأرض يكون عليها السهر، ساهرة فيها نوم الحيوان وسهره، الحيوان يعني كل الأحياء ينامون ويسهرون، فسميت بالساهرة فوصفت بصفة مَن عليها من الأحياء، بأحد أوصافهم.

وبعضهم يقيد ذلك بما يتصل بالسهر، يقولون: إن ساهرة هنا -كقول من قال بأنها الأرض المستوية- المراد بها الأرض الفلاة الواسعة، يقال لها: ساهرة قالوا: لأن العين تسهر فيها ترقباً وخوفاً، يكون الإنسان خائفاً، فلاة ما حوله أحد، فلاة واسعة تحتاج إلى مدة حتى يقطعها، فعادة من يمر بهذه الأماكن الخالية القفر أنه يكون في حال من الترقب والخوف، فإذا جاء الليل ازداد خوفه فيسهر يخاف من العوارض والآفات، ولهذا تجدون كثيراً في كلام الشعراء يمدحون أنفسهم بالشجاعة، فيذكرون أنهم يقطعون الفلاة الشاسعة الواسعة التي لا يقطعها إلا الأبطال أصحاب القلوب القوية الثابتة، كثيراً ما يمدحون أنفسهم بقطع الفلوات الواسعة، ومن هذا ما ذكرته في عدد من المناسبات وهو البيت الذي يقوله صاحبه عن تلك الفلاة في وصفها:

بِهَا جِيَفُ الْحَسْرَى فَأَمَّا عِظَامُهَا *** فَبِيضٌ، وَأَمَّا جِلْدُهَا فَصَلِيبُ

يقول: تنقطع فيها الدواب من طولها وسعتها، أو من بُعد المسافة يحصل للدواب انقطاع -كلال- من طول السير فتُترك فتموت فتتفسخ الجلود عن عظام بيضاء في هذه الصحراء، الجلد يكون يابساً كأنه من المعادن، كأنه قطعة حديد أو خشب أو نحو ذلك.

بعضهم يقول: الساهرة قيل لها ذلك باعتبار أن الأرض المستوية الواسعة الفلاة تَسهر فيها العين مترقبة لِمَا ألمّ بالقلب من الخوف، لكن الذي عليه عامة أهل العلم أن الساهرة: وجه الأرض، ابن جرير يقول: لنوم الحيوان وسهره عليها فوصفت بصفة مَن عليها، فإذا هم بالساهرة: إذا هم على وجه الأرض الأعلى.

وقال الربيع بن أنس: "فإذا هم بالساهرة" يقول الله -عز وجل-: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [سورة إبراهيم:٤٨]، **ويقول تعالى:** {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا} [سورة طه:١٠٥-١٠٧]، **وقال تعالى:** {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً} [سورة الكهف:٤٧] **وبَرَزت الأرض التي عليها الجبال، وهي لا تعد من هذه الأرض، وهي أرض لم يُعمل عليها خطيئة، ولم يهرق عليها دم.**

ولهذا قال بعضهم كما جاء عن سفيان الثوري -رحمه الله-: إن الساهرة هي الأرض التي بُدلت، التي حصل عليها التغيير والتبديل، يعني سفيان الثوري يقول: {فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ} أرض مخصوصة هي الشام أرض المحشر، وإن كان هو ما قال: أرض المحشر، لكن هو قال: الشام والشام هي أرض المحشر، وبعضهم عبارته مغايرة لهذا يقول: ليست كل الأرض يقال لها: الساهرة، وإنما الساهرة هي الأرض التي بدلت فينتقلون بعد ذلك إلى هذه الأرض المبدلة {فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ}، فالله أعلم.

الساهرة هي وجه الأرض، وتقييد ذلك بالشام كأنه أخذه باعتبار آخر هو أن الشام هي أرض المحشر وإلا فالأصل أن الساهرة هي وجه الأرض، فالله يتحدث ليس عن مكان محشرهم وإنما يتحدث عن إحيائهم بعد موتهم، يعني يقومون أحياء على وجه الأرض ينظرون.

{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى * فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى} [سورة النازعات:١٥-٢٦]، **يخبر تعالى رسوله محمداً -صلى الله عليه وسلم- عن عبده ورسوله موسى -عليه السلام- أنه ابتعثه إلى فرعون وأيده الله بالمعجزات، ومع هذا استمر بطغيانه وكفره حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وكذلك عاقبة من خالفك وكذب بما جئت به، ولهذا قال في آخر القصة: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى}.**

إذاً هنا يشير إلى المناسبة التي ذكرتها من قبل على موضوع السورة قلنا: إن السورة تتحدث عن الحشر والنشور والبعث فما مناسبة ذكر قصة موسى؟، هؤلاء الذين يكابرون ويكذبون مُتوعَّدون بعقوبة وعذاب ينزل بهم كما أنزل الله بأسه على إمام المكذبين وكبير العتاة وهو فرعون، بهذا الاعتبار.

يقول: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى}، ذلك: يعني ما ذكر من أخبار القيامة وذكْر موسى وفرعون، أو أن ذلك يرجع إلى ما ذكر مما جرى لفرعون وحل به فيكون ذلك عبرة للمكذبين، يعني إما أن يرجع لكل ما سبق مما ذكر، أو يكون ذلك بقصة موسى مع فرعون.

فقوله تعالى: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى} أي هل سمعت بخبره؟.

بأسلوب الاستفهام وذلك للتشويق، وفيه أن المعلّم هو الله -تبارك وتعالى- وعلمك ما لم تكن تعلم، وأن أحداً لا يعلم الغيب وإنما الذي يعلمه هو الله -تبارك وتعالى-، فالله يخاطب نبيه -صلى الله عليه وسلم-، وهذا الخطاب أيضاً يتوجه إلى أمته، فإنما سيق ذلك من أجل الاعتبار.

{إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ} أي كلمه نداء.

النداء يكون أخص من مطلق الخطاب أو الكلام، يعني النداء يكون بصوت يُسمع، يسمعه المنادَى.

{بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ} أي المطهر.

الوادي المقدس: المطهر المبارك كما يقول ابن جرير، فإن التقديس يعني التطهير، ومن أسماء الله القدوس، فسر بالطاهر من كل عيب السالم من كل نقص؛ لهذا قال: {الْقُدُّوسُ السَّلَامُ} [سورة الحشر:٢٣] فهنا القدوس فسر بالطاهر، والسلام السالم من كل عيب ونقص.

وبعضهم جعل ذلك في أزمان وأوقات قال: القدوس المطهر في الزمن الماضي السالم من كل عيب ونقص، والسلام هو السالم في الحاضر والمستقبل.

{طُوًى} وهو اسم الوادي على الصحيح كما تقدم في سورة طه.

اسم الوادي ولا حاجة للأقاويل الأخرى وهي أقوال بعيدة وضعيفة لكن هو اسم الوادي، والفراء يقول: هذا الوادي بين المدينة ومصر {بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى} ولا حاجة للاشتغال بالتعيين والتحديد ونحو ذلك، فهذا ليس عليه دليل بيّن، ولا فائدة من ذلك.

والقول بأنه الوادي هذا قول الجمهور.

{اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} أي تجبر وتكبر وعتا.

يعني الله -تبارك وتعالى- يقول: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ} فيكون هذا على تقدير: أن اذهب إلى فرعون إنه طغى، أو على تقدير القول أي: ناداه ربه بالواد المقدس طوى قال: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}، أو أن هذا تفسير للنداء ناداه اذهب، الذي يؤيد تقدير أن اذهب قراءة غير متواترة عن ابن مسعود "إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى أن اذهب إلى فرعون".

{فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى} [سورة النازعات:١٨]، أي قل له: هل لك إلى أن تجيب إلى طريقة ومسلك تزكى به أي تسلم وتطيع؟.

يعني قل له: هل لديك رغبة، هل لك إلى أن تزكى، هل ترغب في التزكية؟، وأصل هذه المادة "الزكو" يدل على تطهير، ويدل على نماء، ولذلك الزكاة تطهر النفس والمال وفيها نماء للمال، "ما نقص مال من صدقة"، فهذا أصلها، وتزكية النفوس تكون على شقين:

الأول: الذي يسمى بالتخلية.

والثاني: الذي يسمى بالتحلية، فالنفوس بحاجة إلى إزالة ما يعلق بها من الأكدار، وهي بحاجة إلى بناء بالمعاني الطيبة والكمالات، فالتزكية تقوم على هذين الفصلين، وهنا هل لك إلى أن تزكى؟ فهنا يدخل فيه التطهر من الشرك والمعاصي، والتحلي بالإيمان والعمل الصالح، فالتزكية تشمل الأمرين: تتطهر من الشرك والمعاصي والكفر، وتتحلى بالإيمان والعمل الصالح.

وهنا قراءة الجمهور {هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى} وفي قراءة نافع وابن كثير "تزْكَى" والذي يظهر -والله أعلم- أن معنى القراءتين واحد، كل ذلك من التزكية، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم، إلا أن بعضهم كأبي عمرو بن العلاء وهو من أئمة اللغة يقول: إن قراءة التخفيف تكون بمعنى تزكية النفس، والتشديد "تزكّى" تكون بمعنى الصدقة، لكن هذا فيه بُعد؛ لأن موسى -صلى الله عليه وسلم- ما ذهب إليه يقول له: تصدق، وإنما يقول له: آمِنْ بالله -عز وجل- وتخلَّ عن الإشراك والكفر ومحادة الله وادعاء الربوبية والإلهية {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [سورة النازعات:٢٤]، و{مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [سورة القصص:٣٨].

ما ترك شيئاً فيقول له: {هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى} والتزكية في القرآن يعني غير الزكاة، فالزكاة معروفة {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ} [سورة البقرة:٤٣] هي المال المقدر الذي أوجبه الله -عز وجل- في الأموال الخ... لكن "قد أفلح من تزكى" وأشباه ذلك في القرآن المراد بها تزكية النفوس {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} [سورة الشمس:٩-١٠] كل ذلك يراد به تزكية النفس بالإيمان والعمل الصالح والتخلي عن أضداد ذلك، هذا هو المراد، {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ} [سورة الجمعة:٢]، يعني يطهرهم بالإيمان ويبني نفوسهم بالعمل الصالح ويخلصهم من الشرك وأدناسه، هذا المراد في

جميع المواضع إلا أن من المواضع ما اختلف فيه أهل العلم اختلافاً لربما له ما يبرره وله وجه من النظر، وإلا فالأصل أن التزكية تكون بهذا المعنى.

{وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ} [سورة النازعات:١٩] أي أدلك إلى عبادة ربك، {فَتَخْشَى} أي فيصير قلبك خاضعاً له خاشعاً مطيعاً بعدما كان قاسياً خبيثاً بعيداً من الخير، {فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى} [سورة النازعات:٢٠]، يعني فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق حجةً قوية ودليلاً واضحا على صدق ما جاءه به من عند الله.

{فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى} هل هي العصا؟ أو يقال -وهو الذي عليه عامة أهل العلم-: العصا واليد وهي من أكبر الآيات وهي التي ابتدأ الله -عز وجل- بها حينما أمره بذلك؟.

قال الله -عز وجل-: **{وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ}** [سورة القصص:٣١] هذه الأولى لما خاطبه الله -عز وجل- وأوحى إليه، وقال: **{وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى}** [سورة طه:٢٢-٢٣]، فهنا **{فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى}** [سورة النازعات:٢٠] أراه الآية تكون الآية بهذا الاعتبار جنساً، ليست مفردة، فتكون العصا واليد هي أكبر الآيات؛ أن يضع يده في جيبه هذه آية لموسى، من الرهب يضع تحت عضده مثلاً هذه آية لموسى، لكن هناك آيات لآل فرعون كالجراد والقمّل والضفادع والدم، لكن إذا قرنت هذه بالعصا فهذه بيده تلوح لكن تلك قد يقولون: هذه طبيعية هذه بسبب رياح قادمة من جهة الشرق غرب المحيط الأطلنطي كما يقولون اليوم، ويحصل زلزال فيقولون: هذا فيه انصهار تحت الطبقة الصلبة من المنطقة المنصهرة فأوجد حركة واضطراباً وهذا شيء طبيعي وليس ذلك بسبب عذاب الله وسخطه ولا آية من آياته ولا شيء.

هكذا يقال اليوم، مهما تأتِ الآيات فهذه أشياء طبيعية، فهذه الجراد والقمل والضفادع والدم والطوفان الفراعنة -وهم الفراعنة- ما قالوا هذا الكلام! **{وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ}** [سورة الزخرف:٤٩] مباشرة ذهبوا إلى موسى، وعرفوا أن ذلك عقوبة من الله -تبارك وتعالى-، فكفْر الكافرين اليوم قد يكون أغلظ من كفر آل فرعون من بعض الوجوه، فهنا فأراه الآية الكبرى إذا قلنا: الآيات التسع فيكون المقصود الجنس، وإذا قلنا: العصا واليد وهذا هو الأقرب لعامة أهل العلم يكون المقصود الجنس، ليست مفردة.

وإذا قلنا: المقصود بها العصا مثلا تكون مفردة، لكن الله بم أمره حين يأتي إلى فرعون؟، وماذا فعل هو حينما جاء بالعصا؟ ألقاها فإذا هي ثعبان، وأيضاً أراهم يده بيضاء، فهذا هو المقصود، والله أعلم.

{فَكَذَّبَ وَعَصَى} [سورة النازعات:٢١] أي فكذب بالحق وخالف ما أمر به من الطاعة، وحاصله أنه كفر قلبه فلم ينفعل لموسى بباطنه ولا بظاهره، وعلْمُه بأن ما جاء به حق لا يلزم منه أنه مؤمن به؛ لأن المعرفة علم القلب والإيمان عمله وهو الانقياد للحق والخضوع له.

هذا القدر وهو قوله -تبارك وتعالى-: **{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى}** هذا الخطاب بهذه الطريقة بهذا الرفق يؤخذ منه الرفق في الدعوة لا سيما في مخاطبة الكبراء، وذلك يكون أدعى للقبول، مع أن الله -عز وجل- علم أن فرعون لن يستجيب، والله قال: **{فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}** [سورة طه:٤٤] لعله يتذكر فدل ذلك على أن

القول اللين يكون علة للانقياد والاستجابة والقبول، ومن ثَمّ فإنه لابد من تحديد المراد والهدف ابتداء في الدعوة والخطاب فيمن تخاطبه، هل تريد هدايته أن يستجيب وينقاد؟

فلابد من اختيار العبارة والأسلوب والطريقة المناسبة هذا سواء كان في كتابة مقال في تغريدة كما يقال، أو في رد في كتاب أو في قناة فضائية لابد من تحديد هدف، هذا الهدف يتوجه لمن؟ وما الهدف منه؟ هل هو كسر العظام؟ إذاً شرد بهم من خلفهم وهات أوحش العبارات وأوحش أسلوب.

وإذا كنت تقول: لا، المقصود هو دعوة هؤلاء الناس وهداية هؤلاء الناس واستمالة قلوب هؤلاء المخاطبين إذا لا داعي للعبارات الموحشة، لا داعي لاستعمال بعض الألفاظ والكلمات المنفرة، فإذا كنت تخاطب إنساناً أو تنشئ قناة فضائية وتخاطب طائفة من الناس، ولو كانت ضالة إذا كان المقصود هداية هؤلاء الناس لابد أن يكون بالأسلوب الذي يقبلونه لا أن تصكهم صك الجندل، وتنشقهم الخردل، وتقول: استجيبوا راغمين، لا، **{فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا}**.

فهنا علمه القول اللين، هل لك؟ أسلوب العرض والاستفهام، ثم أضاف ذلك إليه "لك" الاختيار بيدك، أنت صاحب القرار، إلى أن تزكى ما قال أزكيك، قال: تَزكى أنت، اختر لنفسك، تتطهر ثم قال: **{وَأَهْدِيَكَ}**؛ لأن موسى هو الهادي والرسول ولم يقل: وأهديك إليّ، أو: أهديك إلى الحق الذي لا تعرفه، قال: **{وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ}** فهو سيدك وخالقك أدلك عليه تحصل لك الخشية إذا عرفته بأسمائه وصفاته، فهذا الأسلوب ينبغي أن يراعى فيمن نخاطبه فيمن ندعوه لكن النفس أحيانا لربما يحصل لها نوع انفعال وانبعاث بسبب الغيرة فيتصرف الإنسان تصرفات لو نوقش فيها وروجع فيها لقال: لم يكن لي أن أفعل هذا الفعل، إن كان عاقلاً.

لكن يقول: في لحظة انفعال في لحظة غيرة تكلمت بهذه الطريقة، أو كتبت بهذا الأسلوب، ولذلك لا ينبغي للإنسان أن يكتب وهو منفعل، لا تكتب مناصحة لا تكتب احتسابا لا تتصل بأحد وأنت منفعل؛ لأنك ستتكلم بطريقة في الغالب لن تكون هي الأدعى للقبول، قد تتحول القضية إلى نوع من التحدي.

من أنت حتى تخاطبني بهذه الطريقة؟ من أنت حتى تكتب لي بهذا الأسلوب؟ لكن لو أنه تكلم بكلام جيد بكلام طيب أقل ما هنالك أنه يقول: أشكرك على هذه النصيحة، لكن الإنسان أحياناً ينسى، وأحياناً تختلط عليه الأوراق بمعنى أن الإنسان أحياناً -والله المستعان- يظن أن هذا فيه من الحق والثبات وأنه لا تأخذه في الله لومة لائم، لكن إذا كان المقصود القبول والاستجابة والإذعان وتكثير الخير وتقليل الشر إذاً عليك أن تبحث عن أفضل الأساليب.

فموسى -عليه السلام- الله يأمره بهذا، ويعلمه كيف يقول: **{هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى}** بعض الناس يظن أن هذا نوع من الضعف والخنوع، ويأنف من ذلك، وقد تختلط أحياناً حظوظ النفس بدعوة الخلق.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النازعات من الآية (٢٢) إلى الآية (٣٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فبعد أن أقسم الله -عز وجل- هذه الأقسام الخمسة على قضية البعث أخبر عن حال المكذبين حينما تقوم الساعة وينفخ في الصور، {قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ} [النازعات:٨] فتكون في حال من الاضطراب والقلق، والخوف المزعج، ويحصل لهم من الذل ما يبدو على ظواهرهم، فتخشع أبصارهم، وهؤلاء المكذبون بالبعث يتساءلون على سبيل الاستبعاد {أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً} [النازعات:١١] أي: بالية قد صارت بها ثقوب وتجاويف، وهذا يذكرونه من صفتها إمعاناً في استبعاد البعث، فلم تكن تلك العظام سوية على حالها، بل تغيرت.

{يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ} [النازعات: ١٠]، نرجع إلى ما كنا عليه من الحياة بعد أن متنا وصارت عظامنا بهذه المثابة؟!، {تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ} [النازعات:١٢] يعني: إن كان ثمّة بعث، وإن كان ما يقوله محمد – صلى الله عليه وسلم - حقاً فهذه رجعة خاسرة؛ لأنهم كذبوا بها، ولم يؤمنوا، ولم يكن لهم رصيد من الإيمان والعمل الصالح، فهم إلى خسران، والله -تبارك وتعالى- يقول: الأمر في غاية اليسر {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ} [النازعات:١٣]، نفخة في الصور، صيحة واحدة ثم بعد ذلك يقومون أحياء، {فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ} [النازعات: ١٤] بعد أن كانوا في بطن الأرض، في قبورهم ولحودهم أصبحوا أحياء على ظاهرها.

ثم ذكر الله -عز وجل- خبر فرعون لما جاءه موسى -صلى الله عليه وسلم- فكذب به ولم يؤمن، {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى} [النازعات:١٥-١٦]، ناداه الله -عز وجل- بصوت يسمعه بالوادِ المسمى بطوى، قال له: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} [النازعات:١٧]، وفرعون لقب على كل من ملك مصر، {إِنَّهُ طَغَى} تجاوز الحد في الطغيان والعتو على ربه -تبارك وتعالى-، فقل له على سبيل العرض والتلطف في العبارة: {هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى} [النازعات: ١٨]، تؤمن فتتطهر نفسك من أدناس الشرك والكفر والمعاصي، وتزكو وتطيب بالإيمان، {وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى} [النازعات: ١٨-١٩] أدلك على الله فتؤمن وتعرف ربك معرفة صحيحة بأسمائه وصفاته فتخشاه، ثم بين له البرهان الساطع على نبوته وحقيّة ما جاء به، {فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى} [النازعات: ٢٠]، أراه العصا حيث تنقلب حية، وأراه يده تخرج بيضاء من غير سوء، {فَكَذَّبَ وَعَصَى* ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى} [النازعات:٢١].

وقوله تعالى: {ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى} [النازعات: ٢٢] أي: في مقابلة الحق بالباطل، وهو جَمْعُهُ السحرة ليقابلوا ما جاء به موسى -عليه السلام- من المعجزات الباهرات.

{ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى} [النازعات: ٢٢] بعد أن كذب وعصى، {أَدْبَرَ يَسْعَى}، في مقابلة الحق بالباطل، وجَمَعَ السحرة، وسعى في الكيد، ليبطل ما جاء به موسى -صلى الله عليه وسلم-، هذا حاصل ما ذكره ابن كثير -رحمه الله.

وابن جرير –رحمه الله- يقول: يسعى: يعني في معصية الله -عز وجل-، وفيما يسخطه عليه، كلام ابن جرير أعم من كلام ابن كثير.

ومن أعظم معصية الله تعالى ومما يسخط الله عليه هو الكيد والسعي في إبطال ما جاء به موسى -صلى الله عليه وسلم-، فيكون ما ذكره ابن كثير أخص.

{ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى} [النازعات:٢٢-٢٣] الفاء تدل على التعليل، وترتيب ما بعدها على ما قبلها، وهذا يسمى بدلالة الإيماء والتنبيه: أن يقرن الحكم بوصف لو لم يكن علة له لكان ذلك معيباً عند العقلاء، {ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى} فدل على أن هذا السعي يطلق ويراد به العمل، {فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} [سورة الجمعة:٩] يعني: اعملوا على حضور الجمعة، وترك الاشتغال عنها بالبيع والشراء وما إلى ذلك، وهذا كثيراً ما يأتي بهذا المعنى في كتاب الله -عز وجل-، وأصل السعي هو ضرب من المشي بإسراع؛ ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تأتوها وأنتم تسعون))[1] يعني: تسرعون، مع قوله في الجمعة: {فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} [الجمعة:٩]، يقول ابن كثير: أي: اعملوا على حضورها، وبادروا، وليس المراد هو الإسراع في المشي، فالمقصود أن أصل كلمة السعي فيه معنى الإسراع.

فلما سمع فرعون هذه الدعوة من موسى -صلى الله عليه وسلم- يدعوه إلى توحيد الله والإيمان به، ويقول: إنما أنت عبد لله -عز وجل-، فأدلك عليه من أجل أن تخشاه، ذهب فرعون وجمع قومه وقال هذه المقالة التي هي في غاية الشناعة، {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات: ٢٤]، لكن هذا فيما يظهر كان قبل تحديد الموعد الذي تواعد به مع موسى -صلى الله عليه وسلم- {وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى} [طـه:٥٩]، فعندها دعا فرعون الناس من أجل الحضور، وحَشَرَ السحرة من أجل المضادة والعمل على إبطال ما جاء به موسى -صلى الله عليه وسلم-؛ ولهذا يقول ابن جرير – رحمه الله - {فَحَشَرَ فَنَادَى} [النازعات: ٢٣] يعني: جمع قومه وأتباعه فقال لهم: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}.

{فَحَشَرَ فَنَادَى}[النازعات:٢٣] أي: **في قومه**، {فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأعْلَى} [النازعات:٢٤] **قال ابن عباس ومجاهد: وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص:٣٨] بأربعين سنة.**

هذا مأخوذ من الإسرائيليات -والله أعلم-، وهذا صريح في أنه ادعى الربوبية، وفي الآية الأخرى {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص:٣٨]، فادعى الإلهية والربوبية -قبحه الله-، وهذا يرد على من قال من المفسرين: إن فرعون قصد حينما قال: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات:٢٤]: أنا الملك، فمن معاني الرب: الملك، والسيد، أي: أنا سيدكم، أنا ملككم الأعظم، ومنه قوله سبحانه: {مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ} [يوسف:٧٦]، وقوله: {وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ} [يوسف:٤٣]، ولا منافاة، هو ملك، وفي عهد إبراهيم

---

[1] - أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، والنهي عن إتيانها سعيا (٤٢١/١)، رقم (٦٠٢).

-صلى الله عليه وسلم- في الحديث الذي ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- في خبره لما أراد أن يأخذ امرأة إبراهيم جاء في تسميته بالملك، فهؤلاء الفراعنة هم ملوك، ومؤمن آل فرعون قال: {يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ} [غافر:٢٩]، فكان ذلك من قبيل الملك، ويدل على أنهم امتداد للأولين الذين كانوا في زمن إبراهيم، ثم في زمن يوسف -عليهما الصلاة والسلام- أن مؤمن آل فرعون قال مخاطباً لهؤلاء الفراعنة لما أرادوا قتل موسى -عليه الصلاة والسلام-، قال: {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا} [غافر:٣٤]، فدل على أن هؤلاء امتداد له، فهذا الخطاب لا يتوجه إليهم إلا إذا كان أولائك من أسلافهم وأجدادهم وآبائهم قطعاً، فإن الأبناء يخاطبون بخطاب الآباء إذا كانوا على طريقتهم في المذمة، وأما النعمة اللاحقة للآباء فهي لاحقة للأبناء، ولهذا تجد الخطاب كثيراً في بني إسرائيل {وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ} [الأعراف: ١٤١]، والذين أنجاهم هم أجدادهم، {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ} [البقرة:٦١]، {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} [البقرة: ٥٥]، فهذا خطاب للمعاصرين للنبي -صلى الله عليه وسلم-، والذين فعلوا ذلك هم أسلافهم، وأجدادهم، فكل هذا بناءً على أن الأبناء يخاطبون بخطاب الآباء إذا كانوا على طريقتهم في المذمة.

فالمقصود أن هؤلاء المفسرين يقولون: إن فرعون ما كان يدعي الربوبية؛ لأنه يوجد من كبار السن من كانوا يعرفون أن هذه الأكوان مخلوقة، وفرعون ما ولد، فكيف يكون هو الرب الأعلى؟ قالوا: بمعنى أن قوله: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} أنا سيدكم، وهذا الكلام غير صحيح؛ لأنه هنا قال: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات: ٢٤]، وقال: {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص: ٣٨]، وفعل بالسحرة ما فعل؛ لأنهم توجهوا بالعبادة إلى غيره، ويمكن أن يصل الغرور والجنون ببعض الناس إلى أن يدعي هذا، ويجد من يصفق له، {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ} [الزخرف: ٥٤]، والله المستعان.

وأما قوله -تبارك وتعالى- عن قيل الملأ لفرعون: {وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ} [الأعراف: ١٢٧] فهذا لا إشكال فيه، فهو له آلهة يعبدها، ولكنه كان أيضاً يخاطب قومه بهذا {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص: ٣٨]، فهو يعبد آلهة، لكنه يقول: {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي}، ويقول: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}، والله المستعان.

قال الله تعالى: {فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأولَى} [النازعات:٢٤] أي: انتقم الله منه انتقاماً جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله من المتمردين في الدنيا، {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ} [هود:٩٩]، كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ} [القصص:٤١].

الآن ظاهر كلام ابن كثير أن الآخرة هي يوم القيامة واليوم الآخر، والأولى هي الدنيا، وهذا في الواقع معنًى ذكره جماعة من السلف، النكال: مصدر، ويمكن أن يكون نعتاً لمصدر محذوف، يعني: أخذه أخْذَ نكال.

ونكال الآخرة هو عذاب النار، قال سبحانه: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [غافر:٤٦]، فهذا نكال الآخرة، ونكال الدنيا الغرق، وهذا قال به جمع من السلف، وهو الذي مشى عليه ابن كثير، وقال به قتادة، والحسن.

وبعضهم يقول: {نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأولَى} ليس الآخرة يوم القيامة، وإنما في أول حياته وآخرها، {نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأولَى} عذاب أول عمره وآخر عمره، وهذا قاله مجاهد، لكن الذي قبله هو المتبادر، والله تعالى أعلم.

وبعضهم يقول: المراد بالآخرة والأولى من الكلمتين، فالآخرة حينما قال لهم: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}، والأولى: {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي}، هذا يقوله ابن جرير -رحمه الله- وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد والشعبي والضحاك.

وبعضهم يقول: الآخرة: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}، والأولى: هي تكذيبه لموسى -صلى الله عليه وسلم-، يعني: أن الله -عز وجل- نكّل به لسوء صنيعه، وقبح مقاله أولاً وآخراً.

والمعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- هو الأقرب وهو المتبادر، وهو الذي سبقه إليه ابن عباس، وطائفة من التابعين كما سمعتم.

وقوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى} [النازعات:٢٦] **أي: لمن يتعظ وينزجر.**

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً} يعني: فيما ذكره الله -عز وجل- من خبر الآخرة والقيامة، وما ذكره من خبر موسى وفرعون.

{أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ} [النازعات:٢٧-٣٣].

يقول تعالى محتجاً على منكري البعث في إعادة الخلق بعد بدئه: {أَأَنْتُمْ} أيها الناس {أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ}؟ يعني: بل السماءُ أشدّ خلقاً منكم، كما قال تعالى: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ} [غافر:٥٧]، **وقال تعالى: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ}** [يس:٨١].

الاحتجاج على منكري البعث بهذه السماء، وهذه الأجرام العظيمة التي هي أشد خلقاً من الإنسان هو واحد من الأدلة التي احتج الله -عز وجل- بها عليهم.

وقوله تعالى: {بَنَاهَا} فسره بقوله: {رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا} أي: جعلها عالية البناء، بعيدة الفناء، مستوية الأرجاء، مُكللة بالكواكب في الليلة الظلماء.

قوله -تبارك وتعالى-: {رَفَعَ سَمْكَهَا}، رفعه يعني: أعلاه في الهواء، وجعله عالياً، لا يصل إليه الناس، وهذا معنى رفْع السَّمْك، أي إعلاؤه، إعلاء البناء، {رَفَعَ سَمْكَهَا}، يقال: هذا بناء مسموك، أي: مرتفع، وعلى هذا قول الفرزدق:

إنّ الذي سمَكَ السماءَ بنى لنا *** بيتاً دعائمُه أعزُّ وأطولُ

إن الذي سمك السماء، يعني: رفع السماء.

{أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا}، وهذا لا يعارض قول من قال كالبغوي: {رَفَعَ سَمْكَهَا} يعني: سقفها، والمعنى واحد؛ لأن الرفع مذكور قبله، {رَفَعَ سَمْكَهَا} يعني: رفع السماء، رفع سقفها، {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا} [الأنبياء: ٣٢]، فهي سقف، وهذا كله يرد على أهل الفلك من القدماء الذين يقولون: إن السماء ليست بسقف، وإنما غازات، وللأسف الكثير من المسلمين ممن يشتغلون بعلوم الفلك فضلاً عن غيرهم يتابعونهم في هذا، حتى بعض الذين يتكلمون عن الإعجاز العلمي ظاهر كلامهم أنهم لا يثبتون سقفاً، فمن ثنايا الكلام واضحٌ أنهم يتحدثون عن غازات ويقولون: هذه هي السماء، والله -عز وجل- يقول: {وَجَعَلْنَا

السَّمَاء سَقْفًا مَّحْفُوظًا} [الأنبياء: ٣٢]، ويقول: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ} [الذاريات: ٧]، أي: متقنة الصنع، ومحكمة البناء، أو التي فيها تمويج مثل الرمال إذا جاء عليها الهواء يكون فيها نوع من التمويج.

{أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا} [النازعات: ٢٧-٢٨]، جعلها الله في حال من الاستواء، واكتمال الخلق، واعتداله، وقوته، ليس فيها تفاوت، ولا تصدع، وليس فيها ضعف في البناء كما يحصل في البناء الذي يبنيه الناس، فجعلها مستوية معتدلة، لا اعوجاج فيها ولا فطور.

وقوله تعالى: {{وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا} [النازعات: ٢٩] أي: جعل ليلها مظلماً أسودَ حالكاً، ونهارها مضيئاً مشرقاً نيّراً واضحاً.

ابن جرير -رحمه الله- يقول: إن معنى {رَفَعَ سَمْكَهَا} يعني: سوّى السماء فلا شيء أرفع من شيء، وجعلها في حال من الاستواء، ليس فيها تضاريس ومرتفعات ومنخفضات كما هي في الأرض، {فَسَوَّاهَا}، فجميعها مستوٍ في ارتفاعها وامتدادها، فهي مستوية الأرجاء والأبعاد.

{وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا} [النازعات: ٢٩]، قال: جعل ليلها مظلماً أسودَ حالكاً، ونهارها مضيئاً مشرقاً نيراً واضحاً، قال ابن عباس: أغطش ليلها: أظلمه.

{وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا} أظلمه، الله -عز وجل-يقول: {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ} يعني: القمر، {وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً} [الإسراء: ١٢]، هي الشمس.

وأضاف الليل إلى السماء؛ لأن الشمس تشرق وتغرب في السماء، فإذا أشرقت الشمس طلع النهار، وإذا غربت جاء الليل، فأضاف ذلك إليها، فالليل هو غروب الشمس، وطلوعها يساوي طلوع النهار، فأضيف إليها، كما قيل: نجوم الليل؛ لأنها تطلع في الليل، والنهار عبر عنه بالضحى مع أن الضحى هو جزء من أجزاء النهار، ووقته من بعد أن ترتفع الشمس قدر رمح، وله أول، وله أوسط، وهناك الضحى الكبير أو الأكبر الذي يكون في آخره؛ ولهذا جاء في صلاة الأوابين ((حين تَرْمَض الفِصال))[٢]، الإبل الصغار لا تحتمل حرارة الشمس، فتصيبها الرمضاء فتحرك قوائمها، إذا رمضت الفصال.

قال بعض أهل العلم: عبر بالضحى؛ لأنه أشرف أوقات النهار من حيث البركة، والنشاط، والانطلاق، والعمل، والسعي، ((بورك لأمتي في بكورها))[٣]، ولا زال الناس مِن أمثالهم: أمير النهار أوله.

فقوله: {وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا} يعني: أبرز نهارها المضيء بإضاءة الشمس، هذا كله من دلائل قدرته -تبارك وتعالى- على بعث الأجسام وإعادتها من جديد.

قال ابن عباس: أغطش ليلها: أظلمه، وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وجماعة كثيرون.

{وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا} أي: أنار نهارها.

---

[٢] - أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الأوابين حين ترمض الفصال (٥١٥/١) رقم: (٧٤٨)

[٣] - أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٢٢٩/١)، رقم: (٧٥٤)، وأخرجه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في الابتكار في السفر (٣٥/٣)، رقم: (٢٦٠٦)، والترمذي، أبواب البيوع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في التبكير بالتجارة (٥٠٩/٣)، رقم: (١٢١٢)، بلفظ: ((اللهم بارك لأمتي في بكورها)).

وقوله تعالى: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} [النازعات: ٣٠] فسره بقوله تعالى: {أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا} [النازعات:٣١] وقد تقدم في سورة "حم السجدة" أن الأرض خلقت قبل السماء، ولكن إنما دُحيت بعد خلق السماء، بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل، وهذا معنى قول ابن عباس، وغير واحد، واختاره ابن جرير.

{وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} [النازعات: ٣٠]، أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل، {أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا} [النازعات: ٣١]، يعني: كان ذلك مهيأً فيها، قد جعلها الله -عز وجل- بهذه المثابة، فيها ماء، وهي أيضاً قابلة للنبات، فإذا فُجرت العيون وجرت على ظهرها فهذا إخراج بالفعل، {أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا}، فجعله الله كامناً فيها، {دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا}، خلقها خلقاً مهيأً لذلك، وهذه الأوصاف كامنة فيها، فخروجها هذا هو الخروج بالفعل.

بعض أهل العلم قال: الدحو هو ما ذكره الله في قوله: {أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا}، والواقع أن هذا من الدحو ومما يدخل فيه.

وقوله: {وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا} [النازعات:٣٢] أي: قررها وأثبتها وأكَّدها في أماكنها، وهو الحكيم العليم، الرءوف بخلقه الرحيم.

وقوله {مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} [النازعات:٣٣] أي: دحا الأرض فأنبع عيونها، وأظهر مكنونها، وأجرى أنهارها، وأنبت زروعها وأشجارها وثمارها، وثبت جبالها، لتستقر بأهلها ويقر قرارها، كل ذلك متاعا لخلقه ولِمَا يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها في هذه الدار إلى أن ينتهي الأمد، وينقضي الأجل.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النازعات من الآية (٣٣) إلى الآية (٤٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- عن فرعون لما جاءه موسى -صلى الله عليه وسلم- بأمر الله ودعاه إلى الإيمان بألطف عبارة، وأراه المعجزة الباهرة {فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى* فَحَشَرَ فَنَادَى} [النازعات: ٢١-٢٣]، بدلاً من أن يذعن ويؤمن وينقاد انقلب يجمع أتباعه وقومه وجنده لتقرير باطله وكفره، ونادى بهم بهذه العبارة الفجّة، التي هي في غاية النكارة، {فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات: ٢٤]، فعاقبه الله -عز وجل- على ذلك {فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى} [النازعات: ٢٥]، ونكّل به في الدنيا بالغرق، وفي الآخرة بعذاب النار.

ويحتمل أن يكون ذلك يرجع إلى كلمتيه، يعني أن الله -تبارك وتعالى- عاقبه بمقالتيه: بقوله: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}، وبقوله: {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص: ٣٨].

ثم قال الله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى} [النازعات: ٢٦] في خبر موسى مع فرعون وما جرى له، وما عاقبه الله -عز وجل- به، أو فيما ذكر في صدر هذه السورة مع خبر موسى وفرعون {لَعِبْرَةً} عظة {لِّمَن يَخْشَى}، ينتفع بها ويعتبر من كان يخشى الله والدار الآخرة.

ثم قال الله -تبارك وتعالى- مخاطباً هؤلاء المكذبين: {أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا} [النازعات: ٢٧]، يا من تنكرون البعث خلْقُ السماوات أعظم وأكبر من خلقكم، والله -تبارك وتعالى- قد خلقها، بناها، {رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا} [النازعات: ٢٨] أعلى بناء السماء، وسوى خلقها فصار في غاية الاعتدال، {وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا} [النازعات: ٢٩] فجعله مظلماً، {وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا} [النازعات: ٢٩] يعني: صار ضحاها منيراً بطلوع الشمس، {وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا} ليل السماء؛ لأن الليل إنما يكون بغروب الشمس، والشمس في السماء، والنهار بطلوعها، {وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا} [النازعات: ٢٩]، فأضاف ذلك إليها، وذكر الضحى؛ لأنه أجلّ وأشرف أوقات اليوم.

قال: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} [النازعات: ٣٠] يعني: بعد خلق السماء دحا الأرض، وفسره بما بعده، {أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا} [النازعات: ٣١].

قال: {وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا} [النازعات: ٣٢] يعني: أثبتها، فصارت راسية، وأرسى الأرض بها أيضاً وثبتها، فلا تميد بأهلها، كل ذلك فعله {مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} [النازعات: ٣٣]، من أجل أن تتمتعوا بهذه الأرض، وما بث فيها من الأرزاق والأقوات، أنتم وأنعامكم.

{فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى * فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى * يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} [النازعات: ٣٣ - ٤٦].

يقول تعالى: {فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى} [النازعات: ٣٤] وهو يوم القيامة، قاله ابن عباس، سميت بذلك لأنها تَطُمّ على كل أمر هائل مفظع، كما قال تعالى: {وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ} [القمر: ٤٦].

{فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى} [النازعات: ٣٤]، الطامة: هي الداهية العظمى، التي تطم على سائر الطامات، تقول: هذا جاء الوادي الذي طم القرى، فهذه أعظم واقعة، {فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى}، وذلك يوم القيامة، وهي النفخة الثانية، فلعظم هولها قيل لها: الطامة، ووصفت بالكبرى، فالطامات تقع للناس -الحوادث الكبار- ولكن هذه هي الطامة الكبرى، وكل داهية لا تستطاع يقال لها: طامة عند العرب، كما يقوله المُبرِّد.

لكن الطامة الكبرى هي التي تطغى على سائر الطوام والطامات، فهي لا يُقادَر قدرها، {فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى} والجواب قوله سبحانه: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: ٣٧ - ٣٩]الآيات، فهذا هو الجواب، إذا جاءت يكون الناس على حالين، فالطغاة إلى الجحيم، وأهل الخوف والخشية، وإيثار مرضاة الله -تبارك وتعالى- هؤلاء إلى الجنة.

وبعضهم يقول: الجواب مقدر محذوف، {فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى} فإن الأمر كذلك، أو إذا جاءت الطامة الكبرى عاينوا عندها الحقائق التي كانوا يكابرون بها، وينكرونها، فرأوا ذلك عياناً، أو إذا جاءت الطامة الكبرى علموا حقيقة ذلك، فهذه معانٍ متقاربة، وبعضهم يقول: {فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى} أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، والله تعالى أعلم.

{يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى} [النازعات: ٣٥] أي: حينئذٍ يتذكرُ ابنُ آدم جميع عمله خيره وشره، كما قال تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى} [الفجر: ٢٣].

إذا جاءت الطامة الكبرى، {يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى}، ذلك اليوم يوم القيامة الذي هو يوم الطامة الكبرى، هو اليوم الذي يتذكر الإنسان فيه عمله، إن خيراً فخير وإن شرا فشر.

{يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى} جنس الإنسان، كل الناس ينظر فيما عمل وما قدَّم، وهنا عُبر بالسعي، وقد مضى أن السعي يقال للعمل، وسواءً كان ذلك العمل بطاعة الله أو العمل بمعصيته، {ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى} [النازعات: ٢٢، ٢٣]، وهو يدل على المبادرة، والله -عز وجل- يقول: {وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى} [النجم: ٤٠] يعني: عمله، فهنا يتذكر ما سعى، يبدأ يعيد الأعمال، ويراجع سعيه، وما صدر عنه، فمثل هذا يحتاج من العبد إلى تذكر قبل ذلك اليوم من أجل أن لا تتحقق خسارته فيندم، ولا ينفعه عندها الندم، كل أحد سيتذكر في ذلك اليوم ما سعى، إذن فليقدم بين يدي هذا السعي في الدنيا حساباً، وليقدم أيضاً معه وبعده حساباً، فيكون الحساب قبل العمل وفي أثنائه وبعده، قبل العمل بالنظر في الوجهة، وموضع هذا العمل هل هو من محابّ الله، أو من مساخطه؟، ومعه فهو يلاحظ استصحاب النية الصحيحة كي لا تتحول، مع النظر المستمر الدائم في ملاحظة هذا العمل أن يأتي به على الوجه المشروع، وليس القضية أن يؤدي الإنسان أي عمل، وإنما كيف عَمِل؟ كيف أدى هذه الأعمال والعبادات؟ والله -عز وجل- يقول: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} [الملك: ٢]، ما قال: أيكم أكثر عملاً، فإذا قرأ القرآن قبل أن يقرأ يكون له محاسبة، وأثناء القراءة يكون له محاسبة، هل هذه القراءة على الوجه المطلوب؟، وهل هو مستصحب للنية الصالحة فيها؟، وكذلك أيضاً بعد العمل من صلاة وغير ذلك، هل هذا العمل جاء على

الوجه المشروع؟ هل هذا العمل يقربني إلى الله أو أنه يحتاج إلى توبة؟؛ ولهذا الإنسان يستغفر بعد الصلاة، وبعدما يقضي النسك، {فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا} [البقرة: ٢٠٠]، هذه مقامات للذكر، والمراجعة، والإخبات بعد العمل، لا أن يبقى في غفلة تامة، فإذا وافَى القيامة عند ذلك نظر في عمله فتذكر ما قدَّم وأخَّر، ثم بعد ذلك يندم، فهذه الأنفاس هي خزائن للأعمال، وسيجد الإنسان خزائن كثيرة فارغة ما استغلها بشيء يعود عليه بطائلة، وهناك خزائن فيها أعمال قد تكون ناقصة، وهناك خزائن مليئة باللغو، وما لا فائدة فيه، وهناك خزائن مليئة بالشرور والمعاصي، وبعضها في أثواب طاعات، وصور قربات، يعني عبادات لم يكن له فيها نية، أو لم يأتِ بها على الوجه المطلوب المشروع فرُدّت، وكل هذا يكون في كفة السيئات.

{وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى} [النازعات: ٣٦] **أي: أُظهرت للناظرين فرآها الناس عياناً.**

{وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ} يراها الناس، ويشاهدونها، وعندئذ يصيبهم ما يصيبهم من الهول والخوف والشدة مخافة أن يكونوا من أهلها، وهم يعلمون أنهم سيمرون عليها، {وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا} [مريم: ٧١]، فإذا كان الناس يعلمون ذلك ويشاهدون هذه النار العظيمة التي الأرض كلها لا تساوي شيئاً لو رميت فيها، ويسمعون لها تغيظاً وزفيراً، {إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا} [الفرقان: ١٢]، لها سبعون ألف زمام، كل زمام يقوده سبعون ألف ملك، لو كان هذا في شيء في الدنيا له سبعون ألف زمام، يجر كلَّ زمام سبعون ألف رجل لكان شيئاً هائلاً، فكيف بملائكة أقوياء في غاية القوة والشدة يجرونها ويقودونها؟!، فهذه حقاً لا تبقي ولا تذر، هذه التي من أجلها ينبغي أن يحاسب الإنسان نفسه كثيراً طويلاً، في حاله.

{فَأَمَّا مَن طَغَى} [النازعات: ٣٧]، **أي: تمرّد وعتا،** {وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} [النازعات: ٣٨] **أي: قدمها على أمر دينه وأخراه،** {فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى}[النازعات: ٣٩] **أي: فإن مصيرَه إلى الجحيم وإن مطعمه من الزقوم، ومشربه من الحميم.**

{وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى} [النازعات: ٤٠] **أي: خاف القيام بين يدي الله -عز وجل-، وخاف حُكْمَ الله فيه، ونهى نفسه عن هواها، وردَها إلى طاعة مولاها،** {فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: ٤١] **أي: منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء.**

قوله: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ}، أي: الحساب بين يدي الله -تبارك وتعالى- {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ} [الأنعام: ٣٠]، فهم يوقفون هناك، ويوقفون على النار، {وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ} [الأنعام: ٢٧]، فهذه مقامات للناس في ذلك اليوم، {خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ} أي: يوم الحساب، كما يقوله بعض السلف كالربيع، ويقول قتادة: إن لله -عز وجل- مقاماً قد خافه المؤمنون، وقال مجاهد: هذا في الدنيا، يخاف في الدنيا من الله عند مواقعة الذنب، فيقلع عنه، {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [الرحمن: ٤٦]، ليس المقصود خاف مقام الحساب، وإنما خاف في الدنيا، لكن هذا -والله أعلم- لا يعارض ولا ينافي ما ذكر من أنه القيام بين يديه للحساب، فهو يخاف في الدنيا، خاف ذلك اليوم وصار يحسب له حساباً في وقت مبكر وهو في الدنيا، حيث تنفعه المراجعة والتوبة والمحاسبة والخوف، {وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى} [النازعات: ٤٠].

وابن كثير –رحمه الله– لا يقصد أن هذا الخوف يكون في الآخرة، إنما يقصد أنه في الدنيا، يعني يحسب حساباً لذلك اليوم.

{وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى} هذا يوافق ما اشتهر من أن الهوى إذا أطلق فالأصل أنه للذم؛ ولهذا جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن الله ما ذكر الهوى إلا مذموماً، ولكن السياق قد يدل على استعمال الهوى أحياناً في غير موضع الذم، مثل قول عائشة -رضي الله عنها- للنبي -صلى الله عليه وسلم-: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك[1].

{وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: ٤٠ - ٤٢] قال: أي منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء، هذا كله يرجع إلى أن المعتبر هو الإيثار، بمعنى أن داعِيَ الله -عز وجل- يدعوه، والنفس والهوى والشيطان كل ذلك يدعوه أيضاً، فداعي الله يدعوه إلى الإيمان والعمل الصالح، والنفس والهوى والشيطان كل ذلك يدعوه إلى خلاف ذلك، وكما هو معلوم في الحديث لما خلق النار وخلق الجنة أرسل جبريل -عليه الصلاة والسلام- فنظر إلى النار، فرآها في حال يحطم بعضها بعضاً، فقال: ((وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها))[2]، فحُفت بالشهوات، الصور المحرمة الجميلة، الأموال المحرمة، الكسل عن طاعة الله -عز وجل-، كل هذه الأشياء من النظر الحرام، والأكل الحرام، والكسب الحرام، والأصوات المحرمة، فلما رآها جبريل قال: ((وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد)) ، ولما خلق الجنة وبعث إليها جبريل -عليه الصلاة والسلام- ونظر إليها في حال، قال: ((وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها))، فلما حُفت بالمكاره، صيام، صلاة، إذا أذن ذهب إلى المسجد، قام من فراشه، يحفظ لسانه عن الحرام، يحفظ نظره عن الحرام، يحتاج إلى مكابدة وصبر، ومجاهدة، وعمل صالح، ويوجد في أعماق الإنسان دواعٍ توجد النفس المطمئنة وتدعوه إلى الله، والتوبة، والمراجعة، والعمل الصالح، والإيمان، كما توجد النفس اللوامة، تلومه على فعل المعصية، والتقصير، ويوجد داعي الله في قلب المؤمن، والملك له أيضاً لمة بالقلب، هذه كلها من الداخل، مع الفطرة ((خلقت عبادي حنفاء))[3]، ويوجد في الخارج شياطين الإنس من الصامتين والناطقين، فالناطق يدعوه مباشرة للمنكر، وإذا ما استجاب أنكر عليه عدم الاستجابة، وعابه بذلك، كما يعيبه على طاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، ويوجد أيضاً الدعوة الصامتة للمنكر، فكل ممارسة للمنكر هي دعوة صامتة إليه، مثل هذه الأمور تدعو إلى الشر، والمنكر، كلها دواعٍ تسهل عليه مواقعة المنكر، خذ مثالاً على ذلك: التصوير، كان الناس يستوحشون منه، وما كنا نعرف صدق توبة الإنسان إلا إذا أتلف ألبومات الصور التي عنده، اليوم تريد النهي عن التصوير وتقول: لا يصورْ أحدٌ، ثم تُفاجأ بواحد يثني ركبته ويجلس أمامك ويصورك، ويستغرب إذا قلت له: لا تصور اتق الله؛ لأن هذا كثر، ونُسيت

---

[1] - أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب هل للمرأة أن تهب نفسها لأحد؟ (١٢/٧)، رقم: (٥١١٣).

٢ - أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في خلق الجنة والنار (٢٣٦/٤)، رقم (٤٧٤٤)، والترمذي (٦٩٣/٤) رقم: (٢٥٦٠) أبواب صفة الجنة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات.

٣ - مسلم (٢١٩٧/٤) رقم (٢٨٦٥)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار.

النصوص الواردة فيه، وصار الذي ينكر هذا غريباً في الناس، تبرج المرأة يبدأ بواحدة، تعرفون ما ذكره الشيخ علي الطنطاوي: واحدة في دمشق وكيلة مدرسة خرجت سافرة عن وجهها، فأضربت دمشق عن آخرها، وأغلقت المحال التجارية حتى فصلت هذه الوكيلة من عملها؛ لأنها فقط كشفت الوجه، هذا في بلاد الشام يوم كان الناس ناساً، أسأل الله أن يفرج عنهم، ولعل هذه الحرب تعيد الناس إلى معادنهم، وتزيل عنهم هذا الركام.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "قوله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: ٣٧ - ٣٩]، النفس تدعو إلى الطغيان، وإيثار الحياة الدنيا، والرب يدعو عبده إلى خوفه، ونهْي النفس عن الهوى، والقلب بين الداعيين يميل إلى هذا الداعي مرة وإلى هذا مرة، وهذا موضع المحنة والابتلاء.

قوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى} [النازعات: ٤٠] وهو مقام الرب على عبده بالاطلاع والقدرة والربوبية، فخوفه من هذا المقام يوجب له خشوع القلب لا محالة، وكلما كان أشد استحضاراً له كان أشد خشوعاً، وإنما يفارق القلبَ إذا غفل عن اطلاع الله عليه، ونظره إليه"[٤].

لاحظْ، يعني هذا ليس المقام بين يدي الحساب، وإنما {خاف مقام ربه} يعني: باطلاعه عليه، يعني مقام المراقبة الذي يبعث على مرتبة الإحسان، أن تعبد الله كأنك تراه، {ولمن خاف مقام ربه جنتان}، هذا المعنى الأول.

"والتأويل الثاني: أنه مقام العبد بين يدي ربه عند لقائه، فعلى الأول يكون من باب إضافة المصدر إلى الفاعل، وعلى الثاني -وهو أليق بالآية- يكون من باب إضافة المصدر إلى المخوف، والله أعلم"[٥].

{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ} [الرحمن:٤٦]، يعني: يوم الحساب، خاف ذلك الموضع، خاف قيامه بين يدي ربه، أضيف إلى المفعول.

ثم قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا} [النازعات: ٤٢ - ٤٥] أي: **ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق، بل مَردها ومَرجعها إلى الله -عز وجل-، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين،** {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ} [الأعراف: ١٨٧].

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ}، هؤلاء الذين يسألون على نوعين، النوع الأول: من يسأل استبعاداً، واستهزاءً، وتكذيباً، وكفراً، هذا كان سؤال الكفار، يقولون: متى هي؟ متى تقوم الساعة؟ ويستعجلونه بها -عليه الصلاة والسلام-، {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا} [الشورى: ١٨]، فهذا نوع من سؤال السائلين، والنوع الثاني: هو سؤال أهل الإيمان، متى الساعة؟؛ من أجل أن نستعد، وأن نعمل لها، فالأول مذموم، والثاني غير مذموم،

---

[٤] - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/٥١٨- ٥١٩.

[٥] - المصدر السابق ١/٥١٩.

إلا أن جوابه غير معلوم لدى من يوجَّه إليه السؤال، وفي حديث جبريل: ((متى الساعة؟))، لو كان السؤال مذموماً لما وجهه للنبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: ((ما المسئول عنها بأعلم من السائل))[٦].

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا} [النازعات: ٤٢]، يعني: منتهى قيام الساعة، مثل رسو السفينة، لمّا ينتهي سيرها وإبحارها ترسو على الشاطئ أو في الميناء، فهذا منتهى إبحارها، أو سيرها، {أَيَّانَ مُرْسَاهَا} يعني: منتهى قيام الساعة، كرسو السفينة، كما يقوله الفرَّاء.

{فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا} [النازعات: ٤٣]، ابن جرير – رحمه الله – يقول: وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يكثر ذكر الساعة حتى نزلت الآية، وبعضهم يقول: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا}، أيّ شيء أعلمك بوقت وقوعها؟، كأنه يقول: ما شأنك وهذا؟، هذا السؤال لا يوجه إليك، ليس علمها إليك، وإنما إلى الله -جل جلاله.

وقال هاهنا: {إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا} [النازعات: ٤٤] ولهذا لما سأل جبريلُ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- عن وقت الساعة قال: ((ما المسئول عنها بأعلم من السائل)).

يعني {إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا} أي: أن الذي ينتهي علمها إليه هو الله وحده، وأما الناس فلا يعرفون ذلك، لا يعلم وقتها لا ملك مقرب ولا نبي مرسل.

وقوله تعالى: {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا} [النازعات: ٤٥]، أي: إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذرهم من بأس الله وعذابه، فمن خشي الله وخاف مقامه ووعيده اتبعك فأفلح وأنجح، والخيبة والخسار على من كذبك وخالفك.

{إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ} هنا جاء بأسلوب الحصر، حَصَرَ مهمته -صلى الله عليه وسلم- بالإنذار، مع أن الله -تبارك وتعالى- أخبر في مواضع أنه بعثه بشيراً ونذيراً، فهو يجمع بين البشارة والنذارة.

وقوله: {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} [النازعات: ٤٦] أي: إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مُدّة الحياة الدنيا، حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو ضُحى من يوم.

قال جُوَيْبر عن الضحاك، عن ابن عباس: {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} أما عَشِيَّة: فما بين الظهر إلى غروب الشمس، {أَوْ ضُحَاهَا} ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار.

وقال قتادة: وقت الدنيا في أعين القوم حين عاينوا الآخرة.

آخر تفسير سورة "النازعات"، ولله الحمد والمنة.

---

[٦] - أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة (١٩/١)، رقم: (٥٠).